عندما تنقلب الأعمدة

طوني سكاف

عندما تنقلب الأعمدة

طوني سكاف

الطبعة الأولى: ٢٠٢١

الكتاب: عندما تنقلب الأعمدة
المؤلّف: طوني سكاف

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: kreactiv.net
مراجعة لغويّة: سامي معروف

الهاتف: 96171981341+
البريد الإلكتروني: info@500-plus.com
موقع إلكتروني: 500-plus.com

ISBN: 978-9953-0-5574-9

كلّ النصوص الكتابيّة مأخوذة من ترجمة «البستاني فاندايك».

جميع حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة للناشر وحده. ©
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أي جزء منه من دون إذن الناشر.
وللناشر وحده حق إعادة الطبع.

جدول المحتويات

المُقدّمة ٩

عندما تنقلب الأعمدة ١٣

دروس ثمينة في الأزمنة الرّديئة ٢٥

أين هو الله في زمن الضّيق؟ ٣٥

الآبار المُشقَّقة ٤٧

حزن من نوع آخر ٦٣

الفرح المفقود ٧١

تحدّي الإنتظار ٨١

متى تُستجاب الصّلوات ٩١

كيف نحارب الشكّ؟ ١٠٥

حين يحلّ التعب ١١٧

حين لا نجد أجوبة ١٢٩

حين يأتي السيّد ١٤١

المُقدّمة

بالإجمال، يحظى الجسد بعناية لا بأس بها بينما يُترك القلب للتفاعُل مع مرارة الأيام وقسوتها. فما يُصيب الجسد له علاجات مُتنوّعة، والأمور الأكثر مرارة والأشدّ قسوة تزول عند خلع الإنسان خيمَته. أمَّا القلب المُهمَل بأسراره الدّفينة وآلامه الكثيرة هو بذاته الهوية والتاريخ. هذا القلب هو القصّة الحقيقيَّة الكاملة، حيث أنّه يحتوي على الكثير مِمّا لم يُكتب ولم يُسمع. فالقلب بالمعنى الكتابي، يشير إلى الذهن ويشمل العواطف والإرادة، ومن ثمّ الكيان الداخليّ بكامله. إذن، ما يحدث داخل نفوسنا، أخطر بكثير ممّا يحدث من حولنا.

هل يتعب ويشيخ هذا القلب في رحلة صغيرة بالزمن لكنّها غنيَّة بالألم؟ هل يتأذّى وهو يبحث عن الراحة في عالم مليء بالكراهيَّة والخيانة والأنانيَّة؟ أجل، إنَّ القلب هو الأكثر تضَرُّرًا في رحلة الحياة رغم أنّه قد لا يَظهر ذلك في العَلَن. قد يتحطَّم لدرجة

قد يمنع فيها العيون من أن تبكي لأنّه ابتعد عن مصدر المياه وجفّت ينابيعه. يقول سليمان الحكيم عن القلب إن "مِنْهُ مَخَارِجَ الْحَيَاةِ." (أمثال ٤:٢٣). فوجع القلب هو عتمة هذه الحياة. ومهما أنجز أو امتلك الإنسان، فقلبه يحتاج للأجوبة وللحبّ.

بما أنَّ الجروح كثيرة والأيّام الباقية قليلة، من الذي سيُغيِّر قصّة الإنسان الكئيبة؟ ما الذي يجب أن يحدث حتى تُكتب نهاية لقصّة إنسان لا تكون كالبداية المليئة بالحَيرة والأخطاء الكثيرة المُرافقة؟ جاء المسيح يقول: "أنا هو الحق"، أي أنَّه يمتلك أجوبة لأصعب الأسئلة، لا بل هو الجواب والحلّ الذي يفي بالغرض. جاء يقول للمُتعبين ولثقيليّ الأحمال: "أنا أُريحُكم". جاء كما قال خصّيصًا للأثمة والأشرار والساقطين الذين بحثوا عن الحبّ وخُدِعوا، وللفقراء والمساكين والمتروكين الذين بحثوا عن الحبّ ولم يجدوه. لم يَضع أحمالًا ثقيلة ولا نواميس عسيرة، بل سار وحده وقدَّمَ نفسه وأكْمَلَ عَمَلَه. إنَّ القلب المكسور لا يشفيه إلَّا الحقيقة والحُبّ الصادق، ولا يُضرِم الحياةَ في القلب الحجريّ إلا الحُبّ الذي لا يموت. لذا فمضمون دعوتِهِ "يا ابْنِي أَعْطِنِي قَلْبَكَ" (أمثال ٢٣:٢٦)، تؤكِّد عِلمَه بحاجة

الإنسان الأولى إلى المعرفة والحبّ إذ هي تتوجَّه إلى القلب مباشرة، مَوطِن المشكلة.

لا راحة بلا إجابات عن سبب الضيقات والآلام في هذه الحياة. أيضًا، لا راحة بدون اختبار الحبّ الحقيقي الذي هو أقوى من كُلّ التجارب وحتى الموت. فالحبّ الثابت يشفي القلب من جراح الأحزان والشكوك والتعب. أيُّ يَدَيْن قديرتَين تستطيعان أن تُقدِّما هذه الراحة؟ لا يوجد إلّا اليدين المفتوحتين والمثقوبتين. لذلك عندما تزورنا الحوادث والظروف القاسية، إلى جانب الكثير من الألم، أشَدُّ وجع هو الشعور أنّ الله المُحبّ أصبح شخصًا غريبًا. عندما تنقلب الأعمدة في حياتنا ويُضرب الاستقرار، نتصارع مع أصعب الأسئلة وتكثُر الشكوك ويُفقد الفرح ويَصعُب الانتظار ويزداد التعب وتَختلِط علينا الأمور.

هذا الكتاب الصغير هو دعوة متواضعة لمحاولة فهم ما يحدث في وسط عواصف الحياة، على ضوء كلمة الله، لأنّها تستطيع بنورها أن تُعيد الإنسان المُتألّم إلى الله الذي قد يكون أصبح في قلب الإنسان المسكين هذا، بعد كُل ما فعل، بعيدًا وغريبًا.

عندما تنقلب الأعمدة

أنشدَ الملك داود المزمور ١١ بمناسبة انقلاب الأعمدة في حياته وتعرّضه لأشدّ التجارب صعوبةً. تحدّث عن مواجهة الكوارث والنكبات التي أحاطت به وحاصرته، لذلك طرح في هذا المزمور السؤال التالي: "*إذا انقلبت الأعمدة فالصدّيق ماذا يفعل؟*" نتعلَّم من هذا المزمور كيف نواجه الأوقات الأكثر صعوبة التي فيها تتزعّزع الأساسات، ويُضرب الاستقرار، وتسقط الأمور التي كنّا نعتقد أنّها ثابتة. ماذا نفعل عندما يضعف ما كنّا نعتمد عليه، وعندما تتلاشى الأشياء التي اعتدنا عليها؟

قبول الامتحان

من الواضح جدًّا في الآيات ٤-٥ أنّ الإنسان البارّ والصالح والمؤمن الحقيقي يقبل الامتحان الذي يمرّ به وهو يقول: "*الربّ في هيكل قدسه، الربّ في السّماء كرسيّه. عيناه تنظران، أجفانه تمتحن بني آدم.*" بينما ينظر الله إلينا ويراقبنا، يقوم باختبارنا ليرى

ماذا سنفعل عندما تنقلب الأعمدة. بالعادة نركض بسرعة كبيرة حتّى نُنقذ أنفسنا، ونسرع بحثًا عن ملجأ وملاذٍ آمن. والأهمّ من ذلك كلّه، نطلب مُخلّصًا ينقذنا. في المقابل، يطلب الله منّا أن نخفّف من قلقنا هذا ونهدأ، لأنّ انقلاب الأعمدة في حياتنا ما هو سوى اختبار وامتحان لنا. الأولويّة ليست لإنقاذنا أو لتقديم العزاء لنا وشفائنا. يجب ألّا نُسرع في البكاء والصراخ والنواح ونشعر أنّنا مظلومين. عندما تنقلب الأعمدة، فهذا اختبار نمرّ به، ومصدره ليس الإنسان، بل الله.

من الأمور الغريبة أنّنا نتوقّع أن نموت ذات يوم، ولكنّنا نفشل في الصمود أمام الموت حين يقترب منّا؟ نتوقّع نهايةً لهذا العالم وهلاك كُلّ ما فيه، ولكنّنا نخاف عندما تقترب هذه النهاية؟ نتوقّع التحدّيات والظلم والاضطهاد والأمراض، ولكن عندما تحدث يعلو صُراخنا ونغضب!

عندما تنقلب الأعمدة، يعلم الإنسان البارّ ماذا ينبغي أن يفعل: إنّه يقبل الامتحان الذي يمرّ به. تخيّل طالبًا يهرب أو يخرج من الصفّ عندما يحين وقت الامتحان! ما هي الدرجة التي سيحصل عليها؟ صفر! قد يتحجّج بأنّه ذكيّ جدًّا ولا يحتاج

إلى ذلك الامتحان، لكنّه سينال صفرًا. إذا قال إنّه لم يدرس جيّدًا، فستكون النتيجة هي نفسها. قد يتحجَّج بأنّه غير مستعدّ للامتحان، لكن هذا لن يُغيِّر شيئًا أيضًا. لا يوجد أمامه عُذر أو مبرّر، وعليه أن يُنهي الامتحان. هذا يُشبه وضعَنا حين تنقلب الأعمدة، فنحن أمام اختبار تمامًا مثل ذلك الطالب الذي يواجه الامتحان.

في الوقت الذي كانت فيه أورشليم مليئة بالخطايا، كتب حزقيال: "*شعب الأرض ظلموا ظلمًا وغصبوا غصبًا واضطهدوا الفقير والمسكين، وظلموا الغريب بغير الحقّ*" (حزقيال ٢٢: ٢٩). عندما نمرّ في أزمنة مشابهة، نسأل ماذا يريد الربّ منّا، وما المطلوب منّا؟ فيجيبنا الله في الآية ٣٠: "*وطلبت من بينهم رجلًا يبني جدارًا ويقف في الثغر أمامي عن الأرض لكي لا أخربها فلم أجد*". عندما تنقلب الأعمدة، لا يريدنا الله أن نصمت أو أن نخرج بصفحة امتحان فارغة، بل يريدنا أن نقولَ الحقّ. يريد منّا أن نجسّد الحقيقة. يريدنا أن نبني ونعود إلى الحياة. يريدنا أن نقف في الثغر، لملء الفراغ وإنقاذ الأرض.

قبول الدور

من ضمن هذا الامتحان، على المؤمن أن يجيب عن السؤال التالي: «أين أنا من الحقيقة؟» في هذا العالم اضطهاد وشرّ وخطيئة وعصيان ويأس وتذمّر وتجاوزات واتّهامات ضدّ الله. كيف يتصرّف الأبرار أمام كلّ هذا؟ أيمجدّون الله، أم يحزنون ويبكون مثل الآخرين؟ ما المطلوب منّي أن أقوم به في وقت كهذا؟ ما هو دوري؟ دورك أن تبني الجدار لسدّ الفجوة. من هم الملح والنّور والحبّ في هذا العالم؟ إنّهم المؤمنون، جسد المسيح. كيف يمكن للربّ أن يُضيء في هذا العالم من دونهم؟ وإذا فسد الملح فبماذا يُملَّح؟ لذلك، عندما تنقلب الأعمدة، بدلًا من رفض الامتحان وتقليد ردّ أفعال الناس، يجب علينا العمل بناء على خطّة وهدف مُعَدّين سابقًا.

هنالك دمار وكوارث من حولنا. بدلًا من عدم القيام بأيّ شيء، يجب أن نرتقي إلى مستوى ما حدث ونتحرّك. نحن الصليب الأحمر والدفاع المدني والمستشفى والطبيب... لا يمكننا الانسحاب. لا يمكننا أن نخاف أو نهرب. يجب أن نجتهد ونقوم بدورنا ونكون النور والملح والمحبّة في هذا العالم الذي

تتساقط أعمدته الواحد بعد الآخر وستستمرّ في السقوط حتى مجيء الربّ.

ما أقبح الإيمان عندما يزدهر في أوقات الراحة، ويفشل في أوقات الشدّة!

ما أقبح المؤمن عندما يُمجّد الله في أوقات الراحة والسعادة، ويتذمّر في أوقات الشدّة!

ما أقبح المؤمن حين يتمسّك بالحقّ وهو في أمان، ويُنكر الواجب حين يكون غيره في خطر!

لذلك، عندما تنقلب الأعمدة، وهذا ما لا بدّ أن يحدث في حياة الجميع، فإنّ الصدّيقين لن يَصمدوا فحسب، بل سيندفعون لخدمة الربّ.

مواجهة الخوف بشجاعة

الأبرار لا يهربون ولا يخافون من الظالم، ولا يبحثون عن وسيلة لتسهيل الامتحان. يُعلّمنا الربّ أن نخضع لأنّه لا توجد مشكلة في الخضوع. خضوعنا ليس علامة ضعف، على العكس من

ذلك، إنّها علامة القوّة في إيماننا بالربّ. السلطات التي نخضع لها ليست سوى أدوات صغيرة في يد الله القدير. فوق العالي عاليًا. الأبرار لا يهربون، بل يواجهون الاختبار بشجاعة. تقول كلمة الله: "*خشية الإنسان تضع شركًا، والمتّكل على الربّ يُرفع*" (أمثال ٢٩: ٢٥).

لذلك لا يخشى المؤمنون الظلم أو المرض أو الشرّ أو الأوبئة أو الحرائق التي ستضرب الأرض، لأنّه حينها تصبح مثل الفخّ، وكشرك تقود إلى الفشل. لاجتياز الاختبار، علينا أن نتحلّى بالشجاعة والقوّة. علينا أن نتغلّب على المَيْل الطبيعيّ للخوف في أوقات الصعوبات. يقول سفر الجامعة: "*إن رأيتم ظلم الفقير ونزع الحقّ والعدل في البلاد، فلا ترتع من الأمر*" (الجامعة ٥: ٨). يجب ألّا نخاف على أنفسنا أو أن نبكي على ويلات العالم، لأنّ هذه هي حالة التاريخ البشري على مرّ العصور.

لا يحدث شيء لم يُعَيّنه الربّ. لا أحد يستطيع أن يغيّر خطّة الله قيد أنملة أو شعرة واحدة. يقول لنا الله حين نرى الشرّ والظلم: "*لا ترتعبوا، الله جالس في السماء على كرسيّه، الربّ في هيكل قدسه.*" لا أحد يستطيع أن يُهدِّد عرشَه. نعلم جميعًا

أنّ الملوك يخافون على عروشهم، والناس يميلون إلى التمرُّد على حُكّامهم بواسطة الحروب والثورات. هذه العروش في خطر لأنّها أرضيّة، بينما مشروع الله يسير قدمًا وبثبات لأنّ سيادة الله على كلّ شيء.

إنّه لأمر مدهش حقًّا أنّ اثني عشر تلميذًا بسيطًا ومتواضعًا فتنوا المسكونة لأنّ الربّ كان وراءهم. كلمات المسيح واضحة: *"ولكن أقول لكم يا أحبّائي: لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر"* (لوقا ١٢: ٤). يُمكن أن يسبّب لنا من هم في السلطة الألم والمعاناة، لكن هذا أقصى ما يمكنهم فعله. يقول يسوع: *"بل أريكم ممّن تخافون: خافوا من الذي بعدما يقتل له سلطان أن يُلقي في جهنّم. نعم، أقول لكم: من هذا خافوا."* (لوقا ١٢: ٥) فالموت يبدو لا شيءَ مقارنة بالعذاب الأبديّ الذي لا ينتهي. هكذا تنتهي هيمنة أولئك الذين يملكون القوّة الأرضيّة على هذه الأرض، ولكن سلطان الله يتفوّق عليهم. قال المسيح: *"أليست خمسة عصافير تُباع بفلسَين وواحد منهما ليس منسيًّا أمام الله؟"* (لوقا ١٢: ٦) تمتدّ سيادة الله على العصافير الزهيدة الثمن، فكم ستكون قيمتنا عنده نحن

أولاده؟ يقول يسوع: "*بل شعور رؤوسكم أيضًا جميعها محصاة. فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة.*" (لوقا ١٢: ٧)

ما يُخيف العالم بأسره لا يُخيف الأبرار، لأنّ أبانا قد أحصى كلّ شعرة، وكلّ واحدة منها تحتاج إلى إذن مُسبق منه قبل أن تسقط. يلخّص الملك داود ما يفعله أثناء الشدّة والضيق بقوله: "*في يوم خوفي، أنا عليك أتّكل.*" (مزامير ٥٦: ٣) سلطانه ليس على الأشرار والظالمين فقط، بل سلطانه يشمل حتى مشاعرنا. لذلك يستطيع أن يُزيل الخوف عندما يقول: "*أنا هو. لا تخافوا.*" فهو لا يطلب منّا بصيغة التمنّي بل بصيغة الأمر.

لقد فهم بطرس هذه المعادلة، لهذا قال له ذات مرّة: "*إن كنت أنت هو، فمُرني أن آتي إليك على الماء.*" (متى ١٤: ٢٨) بالنسبة إلى بطرس، حتّى لو لم يكن قادرًا على المشي على الماء، فإنّ وصيّة الربّ ستُمكّنه من القيام بذلك. عندما يأمر الله بشيء ويريدنا القيام به، فإنّه سيتمّ حتى لو كنّا غير قادرين عليه. هو يأمرنا: "*لا تخافوا.*"

توقّع عدالة الله

أخيرًا، ستحلّ عدالة الله في الوقت المُحدَّد، وهذا واضح في المزمور ١١: ٦-٧ عندما يقول الكاتب: "*يُمطر على الأشرار فخاخًا نارًا وكبريتًا وريح السموم نصيب كأسهم. لأنّ الربّ عادل ويُحبّ العدل. المستقيم يُبصر وجهه.*" يجب أن ننتظر عدل الله ونتوقّعه بثقة، لأنّ الله عادل ويحبّ العدل، ولأنّ عدله سيتحقّق لا محالة. إنّه لا يراقب ويُلاحظ فقط، لكنّه يُدير الخليقة بحكمة فائقة. كمؤمنين، نعلم جميعًا أنّ يوم الربّ أو يوم القيامة سيغيّر فهمنا للعدالة. على ضوء الأبديّة، ستُحَلّ مشاكل الظلم التي نشهدها الآن. عندما ننتظر عدالة الله ونتوقّعها، سنختبرها في قلوبنا كما لو كانت قد حدثت بالفعل. عند ذلك، سيفوق سلام الله عقولنا. تؤكّد المزامير هذه الحقيقة، إذ نرى أنّ داود يتحدّث كثيرًا عن الشرّ وفاعلي الاثم، ثمّ يتحوّل على الفور إلى تمجيد الله. لم يقضِ الله على الشرّ في زمن داود، وقد لا يقضي عليه في عصرنا. كيف تحوّل داود بسرعة من وصف الشرّ إلى تمجيد الله، وإلى الترنّم والشعور بالسلام في السياق نفسه؟ لقد اختبر في قلبه ما كان يتوقّعه في إيمانه.

كتب داود: *"انتهرتَ الأمم. أهلكت الشرّير. محَوْت اسمهم إلى الدهر والأبد."* (المزمور ٩: ٥) كيف يمكن لداود أن يحتفل بالانتصار قبل حدوثه؟ إختبر الانتصار قبل أن يراه إذ كتب: *"العدوّ تمّ خرابه إلى الأبد وهدمت مدنًا. باد ذكره نفسه. أمّا الربّ فإلى الدهر يجلس. ثبّت للقضاء كرسيّه. وهو يقضي للمسكونة بالعدل. يدين الشعوب بالاستقامة."* (المزمور ٩: ٦-٨) قد نتساءل عمّا يقوله داود فنقول: كيف يدين الله العالم بعدل عندما يموت الأطفال والأبرياء؟ كيف سيكون عادلًا وهو يتحدّث دائمًا عن صرخات المظلومين والعاجزين؟ على الرغم من أنّ هذا يبدو صعبًا، إلّا أنّ الآيات التالية تجيب عن أسئلتنا إذ يقول داود: *"يكون الربّ ملجَأً للمنسحق، ملجأً في أزمنة الضيق. ويتّكل عليك العارفون اسمك، لأنّك لم تترك طالبيك يا ربّ."* (المزمور ٩: ٩-١٠) علينا أن نؤمن ببرّ الله ونستمتع به حتى نتمكّن، مثل داود، من رؤية ما لا يُرى، وحتى نرى الآن عندما تنهار الأعمدة، بأنّ المستقبل سيمجّد الربّ. كيف يمكن لداود أن يعرف أو أن يرى أو أن يقول إنّ الأمم قد هلكت؟ عندما نؤمن نحن المؤمنين بعدالة الله واستقامته ونؤمن بكلمته،

فإنّنا، مثل داود، سنختبر الحقّ والمستقبل والأبديّة قبل أن تأتي "*جعل الأبديَّة في قلوبهم*" (الجامعة ٣: ١١). كيف نكون في سلام عندما تسقط الأعمدة؟ لأنّنا شاهدنا نهاية الفيلم في الوقت الحاضر، واختبرنا آثاره الآن. لأنّ لدينا المعرفة بالإيمان، والتي لها آثارها على حياتنا الآن. يقول داود: "*تأوّه الودعاء قد سمعت، يا ربّ ثبّت قلوبهم تميل أذنك. لحقّ اليتيم والمنسحق لكي لا يعود أيضًا يُرعبهم إنسان من الأرض*" (المزمور ١٠: ١٧-١٨).

يقول الربّ: "*من اغتصاب المساكين، من صرخة البائسين الآن أقوم يقول الربّ. أجعل في وسع الذي ينفث فيه*" (المزمور ١٢: ٥). في هذه الآية، يتكلّم الربّ بصيغة المضارع، "*الآن أقوم*" و "*أجعل في وسع الذي ينفث فيه.*" بعبارة أبسط، على الرغم من أنّ الفقراء قد صُلبوا والبؤساء يئنّون من الألم، فسوف يقومون، كما وعد، وسيُمنحون الأمان الذي يتوقون إليه.

من أين نأتي بالعزيمة؟

قد تبدو كُل هذه المطالب صعبة التحقيق لمن يرزح تحت حمل

التجربة. لكن، لو كانت هذه الأمور مطلوبة من البشر أنفسهم لما وُجِد بينهم إلّا الخاسرين. مَن قَبِل الامتحان وصارع وانتصر، لم يكن مولودًا بطلًا بل كان مؤمنًا. لم يكن صوَّانًا بل طِينًا بين يدي الله. فالله لا يُطالب الضعيف أن يقوم بالأمور الصعبة، لكن يُدعوه لأن يحتفل بالانتصار الذي صنعه المسيح بنفسه وجيَّره له بالإيمان فقط.

عندما تنقلب الأعمدة، يجب أن نثق بأنّ وسيلة الانتصار الوحيدة هي بالإيمان فقط: "*لأنّ كلّ من وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم: إيماننا. من هو الذي يغلب العالم إلّا الذي يؤمن أنّ يسوع هو ابن الله.*" (١ يوحنا ٥: ٤-٥) وحده الإيمان قادر أن يمدّ الإنسان بالقدرة والعزيمة لمواجهة الامتحان بالقبول، والتقدُّم، ومواجهة المخاوف، وتوقّع عدالة الله.

دروس ثمينة في الأزمنة الرّديئة

يتحدّث سفر عاموس الاصحاح ٣ عن معاقبة الله لشعبه على خطاياهم، ويُظهر أنّ الله لا يفعل شيئًا بدون سبب: "*أم يضرب بالبوق في مدينة والشعب لا يرتعد؟ هل تحدث بليّة في مدينة والربّ لم يصنعها؟*" (عاموس ٣: ٦). يشهد سفر عاموس هنا أنّ عقاب الله لشعبه في تلك الأيّام لم يكن بلا سبب. ما ينطبق على تلك الأيّام ينطبق أيضًا على أيّ وقت آخر. يُخبرنا الله في هذا المقطع أنَّ لكلّ شيء سببًا، سواء كان جيّدًا أو سيّئًا. سواء سمح الله بحدوث أشياء جيّدة أو سيّئة، فهنالك أسباب لذلك. في حين أنّنا لا نسأل كثيرًا عن الأسباب التي نتج عنها أوقات جيّدة، إلّا إنّنا دائمًا نشعر بالقلق عندما تحدث الأشياء السيّئة ونتساءَل لماذا يفعل الله ذلك، ما هو قصده؟ ما الفائدة التي يمكن أن تنجم عن الدّمار أو الكوارث أو الحروب؟ بالرغم من أنّنا نعلم أيضًا أنّ الله يعلّمنا دائمًا من خلال أفعاله، إلّا أنّ القضيّة تصبح حرجة للغاية ومُلحّة عندما نحاول فهم الدروس التي

نستفيد منها عند وقوع الكوارث والنكبات. بالتالي، فإنّ السؤال المطروح هو: ماذا نتعلّم في أوقات النكبات؟ نحن نعلم بالفعل أنّنا كمؤمنين علينا قبول مثل هذه الاختبارات، واتّخاذ الإجراءات المناسبة، وتمجيد الله في جميع الأوقات، لكنّ الأهم من ذلك، يجب أن نعرف الدروس التي نتعلّمها من هذه الاختبارات.

الله لا يتهرّب من المسؤوليّة

الأَمر الأَوّل الذي نتعلّمه من عاموس ٣، ومن العديد من المقاطع الأخرى في الكتاب المقدّس، هو أنّ الله لا يتملّص أو يتهرّب من مسؤوليّاته. على العكس من ذلك، فهو يؤيّدها ولا يتبرّأ منها أبدًا. لكنّه يريد منّا في الوقت نفسه أن ننظر إليه عندما نواجه الكوارث. بعض الناس يبرّئون الله من أيّ مسؤوليّة، بينما يرى آخرون أنّه مذنب. في الحقيقة، لا نحتاج إلى تبرئته أو اتّهامه، فالله نفسه يقول إنّه مسؤول بطريقة أو بأخرى عن كلّ شيء، حتّى لو لم يكن منه مباشرة، فهو سيّد على كلّ ما يحدث. إنَّ سبب اللعنة هو سقوط الإنسان في الخطيئة التي دخلت إلى هذا العالم. ومن تداعيات هذا السقوط الرئيسيّة الكوارث والنكبات

والمصائب والأمراض. كلّ المصائب تحدث نتيجة العالم الفاسد الذي سقط في الخطيئة.

في أوقات النكبات، يريدنا الله أن ننظر إليه لنعرف قصده. نقرأ في الكتاب المقدّس: "*إنّ السيّد الربّ لا يصنع أمرًا إلّا وهو يُعلن سرَّه لعبيده الأنبياء*" (عاموس ٣: ٧). إذا وجد أنّ الأمر مناسب، يستطيع الله أن يُخبر أولاده وأنبياءه في الوقت المناسب بالمعنى الكامن وراءَ هذه المصائب وما يجب أن نتعلّمه منها. نجد مثالًا على ذلك في سفر إشعياء: "*لكي يعلموا من مشرق الشمس ومن مغربها أنّ ليس غيري أنا الربّ وليس آخر. مصوّر النور وخالق الظلمة، صانع السلام وخالق الشرّ أنا الربّ صانع كلّ هذه.*" (إشعياء ٤٥: ٦-٧) هو لا يقصد أنّه هو المصدر، ولا بأنّه من ارتكب ذلك الفعل أبدًا، بل كلّ هذه المصائب هي نتيجة سقوط الإنسان في الخطيئة منذ البداية، بدءًا بالخطيئة الأصليّة، لكنّها جميعها لا تحدث بدون إذنه.

علاوة على ذلك، يطلب منّا الله ألّا ننشغل بالنتيجة ولكن أن نركّز على الأسباب. يريدنا أن ننظر إليه وحده كسيّد على كلّ شيء. لا شيء يحدث بدون إذنه أو أمره. طالما كلّ شيء

يحدث بأمره، فهو مسؤول في النهاية عن كلّ شيء، وهذا يهدّئنا ويُطمئننا.

الله لا يتهرّب من مسؤوليّاته ولا يلقي اللوم علينا بينما يراقبنا نعاني: "*أنظروا الآن، أنا أنا هو وليس إله معي. أنا أميت وأحيي. سحقت وإنّي أشفي وليس من يدي مخلّص.*" (تثنية ٣٢: ٣٩) الله هو الذي تطيعه البحار والرياح وكلّ الأمراض والفيروسات والبكتيريا والكوارث والطبيعة، وهو يسود على كلّ الحيوانات. وهكذا، فإن كان الله يريد أمرًا ما، فإنّه سيفعله، وما لا يريده أن يحدث لن يحدث. إنّ إلهنا هو سيّد كلّ الكون، وقد أوضح بأنّه هو المسؤول عن كلّ شيء. نتعلّم من المصائب أنّ الله لا يُنكر مسؤوليّته عنها على الرغم من أنّه ليس السبب المباشر وراءَها، لكنّه يدعونا لأن نأتي إليه ونتعامل معه. يؤكّد الله بأنّه لا يسمح لأقلّ ضرر أن يأتي إلينا بدون إذنه، ولا حتى سقوط شعرة واحدة من رؤوسنا.

الله يدعو إلى التوبة

بالإضافة إلى اعتراف الله بمسؤوليّته السياديَّة الأخيرة في أوقات

النكبات، نتعلّم أيضًا أنّه يدعونا إلى التوبة. عندما تقع المصائب والبلايا، نحاول فهم من تسبّب في ذلك ولماذا، لأنّنا نعتبرها مسألة عامّة وليست مسألة خاصّة، لكنّ الله لا يريدنا أن ننشغل بالآخرين في مثل هذه الأوقات. علينا أن نركّز على أنفسنا ونحاول فهم ما يخصّنا عند حدوث ذلك. لدينا مثال في لوقا ١٣ عندما سُئل يسوع عن الجليليّين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم "*فأجاب يسوع وقال لهم: أتظنّون أنّ هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كلّ الجليليين لأنّهم كابدوا مثل هذا. كلّا أقول لكم، بل إنْ لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون.*" ويتابع قائلًا: "*أو أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم، أتظنّون أنّ هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين في أورشليم. كلّا أقول لكم، بل إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون.*" (٤-٥) لا يتعلّق الأمر في مَن هو خاطئ أكثر من غيره، أو لماذا يتأذّى هذا الشخص دون غيره، أو هل كانت الطبيعة هي المسبّبة أم الإنسان (كما حدث مع بيلاطس). الأمر يتعلّق بتوبة الأحياء إذ يجيب يسوع عن هذه الأسئلة قائلًا: "*إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون.*"

رسالة شخصيّة

يطلب منّا الربّ أن نتوب وأن نتجاهل ولو إلى حين الصورة الكبيرة الكامنة وراء الحوادث، ليس من منطلق الأنانية وعدم الاهتمام بالآخرين، بل لكي نتلقّى الرسالة الشخصيّة الموجّهة إلينا على وجه التحديد. يريدنا الله أن ننظر إلى الأعلى، إليه وحده، وإلى داخلنا لنفهم الدروس الصعبة والشخصيَّة وراء السماح للمصائب بدخول حياتنا.

تتضمّن هذه الرسالة العديد من الأسئلة التي قد تحدّد حالتنا في الأوقات الصعبة وفي نظر الله أيضًا. هل نحن كاملون مع الله؟ هل ستكون هناك أي تغييرات في حياتنا؟ هل نستمع إليه وهو يتحدّث من خلال هذه المصائب؟ الله يوظّف فاعلي الشرّ والحروب لينقل لنا رسالة خاصّة وشخصيّة. عندما سُئل يسوع عن مَن الذي أخطأ في حياة المولود أعمى حتى ولِدَ هكذا، وإن كان هناك صلة مباشرة بين كلّ خطيئة ومصيبة، أجاب بالنفي وبأنّه يجب ألّا نهتمّ بهذه التفاصيل، بل الهامّ هو عمل الله الذي سيظهر في شفائه. الأمر الهامّ هو الرسالة التي سينقلها هذا الأعمى إلى العالم أجمع الذي شاهد هذا الحدث. يجب أن

يكون اهتمامنا هو الاستماع إلى رسالة الله الشخصيّة لنا المُرسلة من خلال هذه المصائب، وأوّلُها المراجعة والتوبة، وثانيها الثبات والشهادة. يستطيع بسيادته على أيّ حدث يقع أن يتعامل مع الجميع بعدل، ولكن بالوقت نفسه يتعامل بخصوصية مع كُلٍّ واحد بمفرده.

سوف يتمجّد الله

سيتمجّد الله حتى في الأزمنة الرديئة. لا يخسر أبدًا حتى معركة واحدة في الحرب. حتّى لو كانت هذه الفظائع ناتجة عن الشرّ، أو سقوط الإنسان في الخطية، أو بُعده عن الله، أو حرّيته التي قرّرت التمرّد على الله ورفضه، ستهدف بأبعادها الأخرى، التي لا ندركها أحيانًا كثيرة، إلى تمجيد الله وتحقيق مشورته وأحكامه السريَّة. قادنا الوقوع في الخطيئة إلى عالم من الفساد والشرّ والأمراض، لكنّ الله لا يخسر وسيحوّل كلّ شيء إلى مجده بطرق مُختلفة. أوّلًا، إن خلّصنا الله مِن هذه الكوارث أو في وسطها، فسيتمجّد. ثانيًا، إن لم يخلّصنا الله ولكنّه كان موجودًا معنا ليعزّينا ويشفينا ويشاركنا في آلامنا، فهو سيتمجّد أيضًا. ثالثًا،

قد يسمح لنا الله بأن نشهد لمجده بينما نتألَّم ونتحدّث عن صليبه وحبّه وفدائه. قد يؤدّبنا الربّ ويعلّمنا ويغيّرنا ويعيد تشكيلنا أثناء المحن. قد يجعلنا أفضل وأقرب إلى النموذج الذي يريدنا أن نكون عليه والذي نسيناه. سيتمجّد الله في حياتنا أو مماتنا لأنّه هو الرابح الدائم في العالم الذي خلقه ويسوده والذي اختار منه خاصّته التي ستبقى معه إلى الأبَد.

هذا الحَقّ يهدّئ ويخفّف من همومنا: الله هو السيّد الذي يدعونا إلى التوبة وهو ممجّد في كلّ شيء.

عندما يتحوّل العالم كلّه في النهاية إلى رماد ويهلك، حينئذ سيخلق سماءً جديدةً وأرضًا جديدة. يتمجّد عندما ينقذنا من جبّ الأسود ومن أتون النار. يتمجّد عندما نموت كشهداء من أجله مثل يوحنا المعمّدان وإستفانوس ويعقوب. يتمجَّد عندما نحمل الصليب مثل باقي التلاميذ الذين كابدوا الآلام والاضطهادات أثناء الكرازة بالإنجيل. حتى في الأزمنة الرديَّة ستكون الأمجاد كثيرة.

الخلاصة

نتعلّم أشياء كثيرة في الأوقات الصَّعبة لأنّ الله لا يتهرّب من المسؤوليّة ولأنّه وراء كلّ شيء. هو يدعو شعبه إلى التّوبَة. يجعل الله العالم كلّه يعمل من أجلنا. فقد عطَّلَ النظام الشمسيّ كلّه من أجل رجل واحد. يتعامل الله معنا بشكل فرديّ وشخصيّ بينما يتعامل مع العالم بأسره بدون أي تناقض.

عندما تقع الحروب والكوارث والأوبئة، قبل أن نسأل لماذا، يجب أن نقرّر مع مَن نريد أن نكون. هل نحن مع الله أم عليه؟ هل نستمع إلى رسائله الشخصيّة التي تدعونا إلى التوبة والتغيير والإصلاح والاستعداد أم لا؟ هل نعلم أنّ الله وراءَ كلّ شيء، وأنّه مسؤول عن كلّ شيء، ولا يحدث شيء بدون إذنه وأمره؟ يقول يسوع المسيح "*من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يفرّق*" (لوقا ١١: ٢٣). فهل تمشي في النور، أم تريد أن تبقى في الظُلمة؟

أين هو الله في زمن الضّيق؟

ما يحدث خلال المصائب وما نتعلّمه شيء، وما يفعله الله في هذه الأوقات شيء آخر. يضعنا سفر دانيال في الاصحاح الثالث أمام مقدّمة قصّة تاريخيّة رائعة لثلاثة شبّان هم شدرخ وميشخ وعبدنغو، الذين اجتازوا تحدّيًا كبيرًا. تمّ إلقاء القبض عليهم في بلادهم وأخذوا عبيدًا إلى أرض بعيدة. لم تنتهِ مصاعبهم عند هذا الحدّ، بل أُمروا بالسجود أمام تمثال ذهبيّ صنعه نبوخذ نصر. لكن بسبب إيمانهم بالإله الواحد الحقيقيّ رفضوا ذلك، فكان بانتظارهم المزيد من المشقّات، وصدرت الأوامر الملكيَّة بأن يلقوا في أتون النار. بالتالي، إن كانت هناك من مشقّة، فإنّ مشقّتهم هي التجسيد الحقيقي لها. كان ولاؤهم والتزامهم مع الله هو السبب المباشر لهذه الظروف القاسية. لأنّ هذا العالم هو عالم شرّير، والشرّ دائمًا يولّد الشرّ والشدائد والاضطهاد للأتقياء.

في الفصل الأوّل رأينا أنّ الصعوبات لا بدّ أن تأتي، وفي الفصل

الثاني رأينا أنّ الدروس والفائدة منها كثيرة رغم بشاعتها. لكن ما نحتاج أن نعرفه بعد هو التالي: ماذا يفعل الله عندما نكون تحت قبضة المعاناة والألم؟ هل يكتفي بالمشاهدة وانتظار النتائج الأخيرة التي سيحوّلها للخير؟

الله موجود

الله معنا في وسط الضيقات. هو لا يهتمّ بنا ويساعدنا من مكان بعيد، ولكن من مسافة قريبة. عندما ألقي الشباب الثلاثة في أتون النار، صرخ نبوخذ نصر وقال متحيّرًا: «*ألم نلقي ثلاثة رجال موثقين في وسط النار... ها أنا ناظر أربعة رجال محلولين يتمشّون في وسط النار وما بهم ضرر ومنظر الرابع شبيه بابن الآلهة* (٣: ٢٤-٢٥). إنّ تعجُّبَ نبوخذ نصر من وجود الرجل الرابع يؤكّد حضور الله مع شدرخ وميشخ وعبدنغو. لقد جاء إليهم المعلّم شخصيًّا. عندما نشعر بالألم أو الخوف، وعندما يشدّ الظلم أو المشقّة أو المرض قبضته علينا، يجب أن نتأكّد من أنّ الله لا يقف ويراقبنا من بعيد. هو يهتمّ بما يحدث معنا، وهو موجود شخصيًّا ليعزّينا ويشجّعنا ويساعدنا. من هو ومن أين أتى

هذا الرجل الرابع؟ إنّه الربّ يسوع المسيح الذي اسمه عمانوئيل، أي الله معنا.

نقرأ في المزمور ١٤٦: ٣-٥ «*لا تتّكلوا على الرؤساء ولا على ابن آدم حيث لا خلاص عنده. تخرج روحه فيعود الى ترابه، في ذلك اليوم نفسه تهلك أفكاره. طوبى لمن إله يعقوب معينه، ورجاؤه على الربّ إلهه*». بكلمات أخرى، حزين هو الرجل الذي يتّكل على أبناء آدم، وطوبى لمن يطلب العون من الله «*رجاؤه على الربّ إلهه*». لأنّ إله يعقوب معه، قربه، يساعده في أوقات المحن والمشقّات. ونقرأ في إشعياء ٤٩: ١٤ "*قد تركني الربّ وسيّدي نسيني.*" قد نعتقد في أوقات الشدّة أنّ الله قد تركنا أو نسينا. صنع نبوخذ نصر تمثالًا ذهبيًّا وأجبر الناس على عبادته. لكنّ الشبّان الثلاثة استمرّوا يفعلون ما كان عليهم فعله، ورفضوا السجود لتمثال الملك، لذلك تمّ تقييدهم وسوقهم إلى أتون النار. ربّما تساءلوا في قلوبهم: "أين هو الربّ؟" ولكن الربّ يقول: "*هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك. هوذا على كفّي نقشتك، أسوارك أمامي دائمًا.*" (المزمور ١٤٦: ١٥-١٦) بالتالي، فإنّ الإجابة

الأولى لما يفعله الله في أوقات الشدّة هو أنّه لا يراقب صمودنا ولا مستوى نجاحنا، بل يقف إلى جانبنا.

الله يعطي القوّة

علاوة على ذلك، في أوقات الشدّة، يمنحنا الله قوّة غير اعتياديّة. كان الشبّان الثلاثة خائفين، وغرباء في أرض أجنبية، يتألّمون ومحطّمون ومُحبَطون ومظلومون من قبل نبوخذ نصر الذي كان ملك الأرض ولم يجرؤ أحد أن يعارضه. لكنَّ هؤلاء الشباب تحدّوه! فيتساءل المرء من أين حصلوا على هذه القوّة! تظهر القوّة في إجابتهم للملك عندما تحدّاهم بأنّه لا يوجد من يخلّصهم من يده إذ قالوا له: "*يا نبوخذ نصر، لا يلزمنا أن نجيبك عن هذا الأمر*" (دانيال ٣: ١٦). لم يكونوا أقوياء فقط في موقفهم، ولكن أيضًا في كلماتهم: "*هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجّينا من أتون النار المتّقدة، وأن ينقذنا من يدك أيّها الملك*" (٣: ١٧). عندها غضب أكثر وأمر بإحماء الفرن سبع مرّات أكثر. فعل ذلك بسبب سخطه على ما قالوا: "*وإلا فليكن معلومًا لك أيّها الملك أنّنا لا نعبد آلهتك ولا نسجد لتمثال الذهب*

الذي نصبته" (عدد ١٨). لو كانوا خائفين أو ضعفاء، لاستمعوا إلى الناس الذين نصحوهم بالسجود مع الحفاظ على إيمانهم، أو الركوع أمام التمثال وهم يصلّون إلى الله من أجل إنقاذ حياتهم. كان من الممكن أن يغشّوا الملك وأن يجنّبوا أنفسهم العقاب. ولكن كانت هناك قوّة غير عاديّة في إجابتهم، جعلتهم يدخلون الأتون الناري المحموم الذي قتل حتى أولئك الذين أعدّوه.

لقد أعطاهم الله القوّة، لأنّه في الأوقات الصّعبة يكون الله معنا دائمًا. قوّته في مساعدتنا لا مثيل لها. هو ملجأنا. لا يوجد سلاح، جديد أو قديم، يمكن أن يقف ضدّه. خلال الحروب، توفّر لنا الملاجئ الراحة والسّلام، وأثناء المصاعب، يجب أن يكون الله وحده ملجأ لنا "*الله لنا ملجأ وقوّة، عونًا في الضيقات، وُجد شديدًا*" (المزمور ٤٦: ١). على الرغم من أنّ هذا المشهد هو مشهد مخيف، إلّا أنّ إلهنا ربّ الجنود معنا وإله يعقوب ملجأ لنا "*لا نخشى ولو تزحزحت الأرض ولو انقلبت الجبال الى قلب البحار*" (العدد ٢). مهما حدث، فالله هو وملجأنا وقوّتنا. يتابع المرنّم ويقول: "*عجّت الأمم، تزعزعت الممالك. أعطى صوته. ذابت الأرض*" (العدد ٦). هذا الإله المهوب الذي يزلزل الأرض

والذي يقيم ويزيل كلّ الإمبراطوريات، هو نفسه معنا.

الله يعمل على تطهيرنا

في أوقات النكبات يُطهّرنا الله ويشفينا ويصقلنا. المصائب تشبه عمل النار في الذهب، فالنار تنقّيه وتشكّله. أفكار نبوخذ نصر شرّيرة والأتون الناريّ هو من صنعه، لكن الله سيستخدمه. على الرغم من أنّ الله لا يتلاعب بالناس ضدّ إرادتهم، إلّا أنّه يتحكّم في هذه الإرادات بدون أن ينزع عنهم المسؤوليّة. يعطينا الله إرادة حرّة، لكنّه يسيطر عليها. ترك هذه النار تطهّر وتعالج وتصقل إيمان شدرخ وميشخ وعبدنغو وتشهد عن حبّه العظيم وقدرته الفائقة. لا تقدر المشقّات أن تؤذي إيمان المؤمنين، على الرغم من الألم والشكّ والخوف والتذمّر أحيانًا، لأنّ الإيمان الحقيقي يُعطى عند الولادة الجديدة ولا يُفقد أبدًا. التعابير العاطفيَّة لا تعكس الإيمان الحقيقي دائمًا. الشدائد تعزّز الصبر وهو القوّة اللازمة للتحمّل والانتصار. يمنحنا الله الصبر كأداة لكسب المعركة. لم تؤذِ النار شدرخ وميشخ وعبدنغو، إذ نقرأ: ”*لم تكن للنار قوّة على أجسامهم وشعرة من رؤوسهم لم تحترق وسراويلهم*

لم تتغيّر ورائحة النار لم تأتِ عليهم." كانت النار كلا شيء. كانت النار خطّة الله لتثبيت إيمانهم.

نحن بحاجة إلى هذه الأشياء. الله يطهّرنا ويصقلنا من خطايانا سواء كانت صغيرة أم كبيرة. قد نعتقد أنّنا لم نرتكب أي شيء من الكبائر، لذلك لا داعي لأن نتطهّر. حتى لو اعتقدنا مُخطئين أنّنا قد ارتكبنا خطايا صغيرة فقط، فإنّ لها قيمة الخطايا الكبيرة نفسها. على سبيل المثال، يطهّر الله الأوهام التي نعيشها في أوقات الشدّة. هذه الأوهام تُسمّى أحلام أو طموحات أو مشاريع أو توقّعات، وكلّها تميل إلى الزوال في أوقات الشدّة لأنّها تصبح تافهة. يطهّرنا الله منها، وبالتالي، لدينا الوقت للتركيز على الأولويّات، وعلى الأساسيّات، وعلى ما هو هامّ. نتطهَّر من الذرائع، من الرياء، من الكسل، من الادّعاءات الكاذبة...

الله يُعلن الحقيقة

في الأوقات الصّعبة، يعمل الله على كشف الحقيقة وتطهيرنا من السطحيّة التي تجعلنا حزينين أو سعداء بشأن الأشياء الصغيرة التي لا معنى لها. نتوقّف عن القلق بشأن الأشياء التافهة،

وتصبح قلوبنا وأرواحنا أكثر تركيزًا على الله وأموره. نتحرّر من الغيرة والحقد ورفض الغفران. في أوقات الشدّة، ندرك أنّ كلّ هذه الأمور لا قيمة لها ولا يعود يهمّنا سوى اكتشاف الحقيقة.

عندما يتمّ الكشف عن الحقيقة، فإنّها تحلّ محلّ عدم الشكر والتذمّر. نبدأ في تقدير الحياة وهبات الله في الحياة. في أوقات الشدّة، يكشف لنا الله عقمنا، ومعاركنا التي لا فائدة منها، وعيش حياة بلا معنى. يخلّصنا الله من كلّ هذه الأشياء غير الهامّة. إنّه يعطي حياتنا هدفًا ومعنى: «*هوذا يوجد إلهنا الذي نعبده يستطيع أن ينجّينا من أتون النار المتّقدة وأن ينقذنا من يدك أيّها الملك*». إختبر شدرخ وميشخ وعبدنغو إختيار الإنتصار في الحرب الروحيّة الحقيقيّة وأصبحوا جنودًا لله. هناك الكثير من الناس الذين يعيشون حياة لا معنى لها، لأنّهم مرتاحون ولأنّهم لا يعانون من المشقّات بل يحيون حياة اليأس والفراغ والضّحالة.

يُمجدّ الله اسمه

يكتب الرسول بولس في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس: "*لذلك لا نفشل بل وإن كان إنساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدّد يومًا*

فيومًا" (٤: ١٦). وهكذا، كلّما كانت هناك مشقّة، يزداد المجد. يتابع الرسول بولس ويقول: "*ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل التي لا تُرى، لأنّ التي تُرى وقتيّة، وأمّا التي لا تُرى فأبديّة*" (٤: ١٨). لكن لا يمكننا فعل ذلك لأنّنا نعيش بالجسد الماديّ وليس بطريقة روحيّة مجرّدة. من خلال المشقّات المؤقّتة التي تُضعف الرؤية الجسديّة، يساعدنا الله على رؤية ما هو غير مرئيّ، فتُفتح أعين الإيمان فنفهم الأمور الروحيّة.

في خضمّ المصاعب، نصبح أكثر حكمة لأنّنا نرى الأشياء من منظار الله كما هي بالفعل. نقتنع أكثر بأنّ هذا العالم شرّير وفاسد وسيهلك. نُدرك أنّ هذه الحياة لا معنى لها، وأنّ الأيّام القليلة التي لدينا ستنتهي. الحزن القليل والمصاعب البسيطة، ليست شيئًا بالمقارنة مع الاستثمار الكبير الذي ستظهر نتائجه عند ظهور ربّنا ومخلّصنا يسوع المسيح. إذًا، ماذا يفعل الله في زمن الضّيق؟ يُمجِّد إسمه بتحقيق مشيئته وهي قداستنا.

يوفّر لنا الله الخلاص

والأمر الآخر الذي يفعله الله لشعبه المكرّسين له في الأوقات

الصّعبة هو أنّه يخلّصهم. وهذا واضح جدًّا في ردّ نبوخذ نصر عند رؤية الرجال الأربعة يسيرون بسهولة في النار إذ قال: "*تبارك إله شدرخ وميشخ وعبد نغو الذي أرسل ملاكه وأنقذ عبيده الذين اتّكلوا عليه وغيّروا كلمة الملك وأسلموا أجسادهم لكيلا يعبدوا أو يسجدوا لإله غير إلههم*" (دانيال ٣: ٢٨). لا أحد أقوى من المؤمنين، ولا شيء يُخيفهم. هل يُنقذ الله مختاريه دائمًا؟ أحيانًا نعتقد أنّ الإنقاذ هو إنقاذ الجسد فقط. هذا غير صحيح. إنّه خلاص الرّوح. إن كان الجسد سيحترق لتخلص الروح، فليحدث ما يحدث لهذا الجسد لأنّه ليس إلّا خيمة مهترئة سوف نخلعها يومًا ما. لا يمكننا الاحتفاظ بها الى الأبد. يجب ألّا نخاف عندما نتحدّث عن الخلاص والشفاء. لقد مات الربّ على الصليب ليخلّصنا ويشفينا، ليس من الأمراض الجسديّة التافهة والمؤقّتة، بل لشفاء أرواحنا من مرض الخطيئة والعبوديّة. قدّم الكثير من القدّيسين أجسادهم: عُذّبوا واستشهدوا، لكن جميعهم حُفظوا ووصلوا وغلبوا.

يكتب الرسول بطرس في نهاية رسالته الأولى للمؤمنين المتألّمين: "*وإله كلّ نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبديّ في المسيح يسوع*

بعدما تألّمتم يسيرًا هو يكمّلكم ويثبّتكم ويقوّيكم ويُمكّنكم" (٥: ١٠). دعوات الله وعطاياه هي بلا ندامة. عندما يختارنا بالاسم، يقودنا بنفسه وبحسب نعمته وعلى أساس عمله الكفَّاري البديلي الذي أُكمل. كلّ المختارين سيخلصون سواء كانوا ضعفاء أم أقوياء، خائفين أو شجعانًا لأنّ أسماءهم مكتوبة في سفر حياة الخروف الذي ذُبح. بحسب وعده، لن يُفقد منهم أحد. لذلك يدعونا الله ويقول: "*شدّدوا الأيادي المسترخية والركب المرتعشة ثبّتوها. قولوا لخائفي القلوب: تشدّدوا لا تخافوا، هوذا إلهكم الانتقام يأتي جزاء الله. هو يأتي ويُخلّصكم*" (إشعياء ٣٥ :٣-٤).

الآبار المُشقَّقة

في الحياة أوقات أكثر صعوبة من غيرها، سواء كان ذلك على المستوى الشخصيّ أو المجتمعيّ. ينقل الفصل الثالث من الرسالة الثانية للرسول بولس إلى تيموثاوس الممارسات الخاطئة المشهورة والشائعة التي يمارسها الناس في أوقات الشدّة. هنالك العديد من الإشارات إلى الممارسات الباطلة، لكن سنذكر البعض منها فقط. الممارسات الباطلة هي الممارسات غير الصحيحة وغير المفيدة التي يحذّرنا الربّ من الوقوع فيها في الأوقات العصيبة.

محبّة الذات

محبّة الذات هي التمركز حول الذات والأنانية: "*لأنّ الناس يكونون مُحبّين لأنفسهم*"(٢ تيموثاوس ٣: ٢). بالتأكيد ستأتي أوقات محفوفة بالمخاطر يندفع فيها الناس طلبًا للمال خوفًا على عدم إمكانيَّة تلبية احتياجاتهم. حينها، يزداد حبُّهم وتعلُّقهم بأموالهم لأنّهم يعتقدون أنّها قد تُنقذهم في الأوقات الصعبة.

هؤلاء الناس لا يتحولون فقط إلى عشّاق للمال، بل إلى الجشع والطمع أيضًا. إنّهم لا يشعرون بالاكتفاء أبدًا: يدّخرون ويمرضون. يتصرّفون كما لو أنّ الحياة نفسها هي الأهمّ، فتبتعد أعينهم عن الله واهب الحياة، فتصبح الحياة نفسها إلهًا ومعبودًا.

إنّها حقًا ممارسة مشهورة في الأوقات الخطرة عندما يتجاوز حبّ الذات محبّة الله. هذه الممارسة الخاطئة هي أن نحبّ أنفسنا وأن ننقذ أنفسنا وأن نندفع إلى المتاجر وندوس على أخوتنا ونخزّن الأشياء حتى لو سبَّب ذلك إفقار الآخرين.

الحياة هامّة بالفعل، لكنَّ الأهم من الحياة هو كيف نعيشها. الحياة لا تساوي الله لأنّه هو الذي يهب الحياة. هذه نقطة حرجة للغاية لأنّنا بدلًا من عبادة الله، ننحرف لنعبد عطاياه. يقول الرسول بولس: "*لأنّ لي الحياة هي المسيح والموت هو ربح*" (فيلبي ١: ٢١). يجب أن نكون حريصين على عدم الإستماتة بالقتال أو الدفاع عن الحياة بأيّ ثمن؛ ثمن قد يُفقدنا المعنى الحقيقيّ للحياة، وهو يسوع المسيح. الاستعداد للأوقات المحفوفة بالمخاطر هو واجب والتزام يجب علينا القيام به، لكن يجب ألّا نمارسَه بأيّ ثمن، ولا سيّما الغرق في محبّة الذات.

يجب أن يكون النضال ضدّ الخطيئة وليس ضدّ الموت. في بعض الأحيان، يجب مصارعة الخطيئة حتى الموت. نحن نؤمن بثقافة الحياة، ولكن بثقافة الحياة النقيّة والنظيفة التي تضحّي وتُثمِّن المسيحَ وتعاليمَه فوق الجميع. يكتب الرسول بولس: "*مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا، بل المسيح يحيا فيّ. فما أحياه الآن في الجسد، فإنّما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبّني وأسلم نفسه لأجلي*" (غلاطية ٢: ٢٠).

التذمّر

النوع الثاني من الممارسات الخاطئة التي يتورّط بها البشر في الأزمنة الصعبة هو التذمّر. تشير الآية الثانية في الاصحاح نفسه إلى غير الشاكرين والمشتكين والمتذمّرين. في تاريخ شعب الله، كان التذمُّر خطيئةً تكرّرت كثيرًا حتى خسروا الكثير من وعود الله المشروطة. دفعوا ثمنًا باهظًا بسبب التذمّر المستمرّ وعدم الشكر. نحن عرضة لأن نكون غير شاكرين في الأوقات العصيبة بينما نشكر دائمًا في الأوقات الجيّدة. كتب الرسول بولس لأهل تسالونيكي: "*أشكروا في كلّ شيء لأنّه هذه هي مشيئة الله*

في المسيح يسوع من جهتكم" (١ تسالونيكي ٥: ١٨). لماذا يجب أن نكون شاكرين على كلّ شيء، حتى على الأمور التي لا نُحبّها؟ ببساطة، لأنّ أي تذمّر في الحياة هو تمرّد على سيادة الله المُتحكِّمة في الأمور. إنّه يتحكّم في كلّ شيء ويجعلنا نرى أنّه يوجد حكمة وصلاح في كلّ ما رتّبه لنا، حتّى لو لم نرى ذلك أو نُدركه. وهكذا، عندما نتذمّر ونشكو من أي شيء في الحياة، فإنّنا نشكو ضدّ مشيئة الله. بالتالي، نحن نتذمّر على الله نفسه. حتى تذمّرنا على من حولنا أو على الطقس أو على الفقر أو على المرض، هو تذمّر ضدّ الله الذي سمح وأراد مثل هذه الأشياء أن تحدث في حياتنا.

نعبّر أحيانًا عن تذمّرنا على الله من خلال الصّلاة. نصرخ إلى الله طالبين المعونة، ولكن في كلماتنا مشاعر اللوم والعتاب. عندما نُحذّر الله في صلواتنا بأنّنا لا نعرف ماذا سيحدث إذا استمرّ أمر ما في حياتنا، فهذا أيضًا تذمّر لأنّنا نهدّده بإمكانية فقدان إيماننا. هذا شكل خطير جدًّا من التذمّر المغطّى بالصلاة. نتذمّر برفضنا للواقع ولسلطان الله وإرادته. وقد نصل في تذمُّرنا إلى طلب إنهاء حياتنا. هذه ممارسات خاطئة للغاية في الأوقات

العصيبة. تذمَّرَ إيليّا ذات مرّة بهذه الطريقة وانزعج الله من ذلك. تذمّر يونان أيضًا بطريقة مماثلة ولم يسرّ قلب الله أبدًا. في هذه الأجواء، عندما نطلب من الله أن يُنهي حياتنا، فإنّنا لا نفعل ذلك لأنّنا نريد التخلّي عن الأمور الأرضية، بل بسبب عدم رضانا عن عطيّة الله. نرفضُ إذًا عطيّةَ الله لنا لأنّنا غالبًا ما لا نفهم حكمته منها.

ما هو المطلوب منّا بدلًا من التذمّر؟ الشكر. لكن، لكي نكون قادرين على الشكر في كلّ حين، يجب أن نكون متواضعين، وألّا نرى أنفسنا كمنبوذين أو مُهملين في الأوقات العصيبة. كيف نتقبَّل عذاب الفقراء أو المرضى ولا نتقبَّل أن تحدث معنا؟

التواضع هو مفتاح الشكر، فهو يجعلنا نعترف بأنّنا أيضًا خطاة ونحتاج إلى التَّوبة. كلّما واجه الإنسان المؤمن صعوبة أو تهديدًا أو خطرًا، فهنالك شيء جيّد بانتظاره لأنّ الله سيطهّرنا من خطايا وأفكار وأمراض روحيَّة لا ندركها. لم يكن الألم أو الصعوبة في يوم من الأيّام عدوًّا ضارًّا، بل رفيقًا يسمح لنا باستغلال أي تحدٍّ للتأمّل ولتصحيح الأخطاء والتخطيط والانتباه. الألم صديق المؤمنين وليس عدوّهم.

إظهار صورة التقوى

حتّى الآن، تكلّمنا عن ممارستين خاطئتين: محبّة الذات والتذمّر، وكلاهما غير مقبول في عيني الربّ. أمّا الثالثة فهي الأشهر في عالمنا الشرق أوسطي، وهي إظهار صورة التقوى أو ارتداء القناع الدّيني. في الأوقات العصيبة، يعود كثيرون إلى ممارسة طقوس وثنيّة ورثوها ظنًا منهم أنّها سترضي الله وتُبعد عنهم غضبه. هذه الممارسات تتجلى في عدّة أشكال، وإن كان لها طابع مسيحي إلّا أنّها تبقى بلا معنى ولا فائدة.

الرشوة الدّينية

المظهر الأوّل من مظاهر ممارسة التقوى المُقنّعة هي محاولات رشوة الله. عندما نصلّي أو نُرنّم أو نعبد أو نستمع إلى كلمة الله بهدف إرضائه، فإنّ هذا ينطوي على نوع من الرشوة. لكي يرضى الله عنّا ويغفر لنا ويُبعِد غضبه عنّا ويرحمنا، نبدأ في أداء طقوسنا الدينيّة، سواء لرموزها الجميلة أم لا. عندما نمارس مثل هذه الطقوس لإرضائه، فإنّ هذا شكل من أشكال الوثنيّة. إنّها ممارسة غير صحيحة ومرفوضة بكلّ أشكالها. إنّها تقدّم الله كإله

قاس يريد أن يؤذينا ليأتي بنا إليه. هذا يعطي الانطباع بأنّ الله يحتاج إلى صلواتنا وترانيمنا وعبادتنا ليشعر بالفرح والراحة. هذا ما يفعله الوثنيّون والديانات الباطلة من خلال العبادة والطقوس المفرطة لإرضاء إله بعيد.

كلّم الربّ شعبه في القديم عن هذا وقال: "*حِينَمَا تَأْتُونَ لِتَظْهَرُوا أَمَامِي مَنْ طَلَبَ هَذَا مِنْ أَيْدِيكُمْ أَنْ تَدُوسُوا دِيَارِي؟ رُؤُوسُ شُهُورِكُمْ وَأَعْيَادُكُمْ بَغَضَتْهَا نَفْسِي. صَارَتْ عَلَيَّ ثِقْلاً. مَلِلْتُ حِمْلَهَا.*" (إشعياء ١: ١٢-١٤) قبل أن يعطي الإنسان قلبه للربّ، لن تُقبل منه أي عطيَّة أخرى.

العبادة المُفرطة

المظهر الثاني لصورة التقوى هو الإفراط في الصّلاة والعبادة. قد نعتقد أنّه في الأوقات الخطرة يجب أن نزيد أو نكثّف عبادتنا وصلواتنا. قد نُقنع أنفسنا بأنّنا لا نُرشي الله لأنّنا نعبد ونصلّي بصدق. لكن، هنا أيضًا، يحذّر الربّ من الإفراط في العبادة أو الصلاة لزيادة فرص النَّجاة في مثل هذه الأوقات. يعلّمنا المسيح في إنجيل متى كيف نصلي: "*وحينما تصلّون لا تُكرّروا*

الكلام باطلًا كالأمم، فإنّهم يظنّون أنّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم" (٦: ٧). عادة ما يفعل الوثنيّون هذا لأنّهم يميلون إلى تكرار كلماتهم. وأحيانًا يمارس شعب الله الأمر نفسه: "*فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثّرتم الصّلاة لا أسمع. أيديكم ملآنة دمًا* "(إشعياء ١: ١٥). نعتقد أنّه لو كرّرنا الصّلاة الربّانية "أبانا" ١٠ أو ٢٠ أو ٣٠ مرّة، فإنّ هذا أفضل بكثير من تلاوتها مرّة واحدة. الإعتقاد بأنّ التكرار سوف يجعل الآلهة تسمع وتستجيب هو ممارسة وثنية مُخزية. الإفراط في الإسهاب والتكرار من أشكال العبادة الوثنيّة. الله الحقيقي يعلم ما في قلوبنا قبل أن نطلب، ولا يريدنا أن نكرّر الكلام. يقول الربّ في سفر إشعياء النبيّ: "*لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الربّ*" (١: ١١). يحذّرنا الله من تقديم الكثير من التقدمات والذبائح التي لم يطلبها. يطلب الله منّا: "*اغتسلوا، تنقّوا، اعزلوا شرّ أفعالكم من أمام عينيّ. كفّوا عن فعل الشرّ*" (١: ١٦).

الخرافات الشعبيَّة

الشكل الثالث لهذه الممارسة الزائفة للتقوى المقنّعة، هو الاعتماد

على الخرافات الشعبيَّة ولو بطابع مسيحيّ. ليس كُلّ ما يُصبغ بصبغةٍ مسيحيّةٍ يُصبح مسيحيَّ الطبيعةِ والهويَّة. فالمسيحيَّة الحقيقيَّة هي مسيحيَّة كتابيَّة وليست عادات اجتماعيَّة. أحيانًا، يمكن أن تكون مزيجًا من الإثنين معًا، مثل السامريّين الذين اعتادوا على ممارساتهم الأَمَميَّة والصلاة إلى الله الواحد في الوقت نفسه. مِثال على هذه الخرافات الشائعة هو أنّ الأمور الماديَّة التي تتمثّل بالرموز المسيحيَّة كالصوَر والتماثيل والكُتب المقدّسة والكنائس والذخائر... قد تحمينا. لا طقوس أو ممارسات أو إحتفالات أو صلوات يمكن أن تمنع الأذى عنّا، فقط عناية الله المُحبّ وسيادته على الكُلّ هي ضمانتنا ورجاؤنا.

نجد مثالًا في سفر النّبي إرميا ٧، عن أشخاص قيل لهم في تلك الأيّام إنّ زيارة هيكل الله سيحميهم. يقول الربّ: "*لا تتّكلوا على كلام الكذب قائلين هيكل الربّ، هيكل الربّ، هيكل الربّ هو*" (٧: ٤). إنَّ هيكل الله مقدّس، لكن يجب ألّا نصدّق الأكاذيب التي تقول إنّنا بالاختباء فيه نجد الحماية. لا يستطيع أيّ صليب مرفوع في أي مكان أن يحمينا، ولا يقدر أيّ كتاب مقدّس موضوع تحت أيّ وسادة أن يحمينا. لا تقدر

الأشياء أن تحمينا حتّى لو كانت مقدّسة، لأنّ الله وحده هو الذي يحمينا: "*ها إنّكم متّكلون على كلام الكذب الذي لا ينفع.*" (٧: ٨) عندما نمارس أي طقوس دينيّة وقلوبنا بعيدة عن الربّ، والشرّ موجود في حياتنا ولا نتوب ونعود عن طرقنا الرديئة، فإنّها تبقى ممارسات عديمة الفائدة ولن تحمينا. إعتقد شعب الله يومًا أنّهم إذا أحضروا تابوت العهد أمام الأعداء، فإنّ الله سَيَنصرُهُم، فهو لن يقبل تدنيس تابوت العهد المقدّس. لكن ما حدث حقًّا هو أنّهم هُزموا وأهينوا بشكل رهيب واستولى أعداؤهم على تابوت العهد.

طلب الوساطة

مظهر خطير آخر من مظاهر الممارسات الخاطئة هو الطلب من أحدهم أن يساعد الله، أي طلب الشفاعة. الهدف من الشفاعة أو التوسُّط هو إمّا أن نطلب من شخص ما أن يساعده على معرفة أمر ما، أو على مساعدته للقيام بأمر ما، أو ليُشفق قلبه علينا لأمر ما. كُلّ هذه الحالات هي إهانة لقدرة الله وعظمته، ولقربه من الإنسان ومحبّته. الممارسة لها جذور وثنيّة واضحة في تعدّد

الآلهة. إعتقد الوثنيّون أنّ هذا الإله أو ذاك لا يكفي في حدّ ذاته، لذلك برزت الحاجة لتعاون هذه الآلهة ومساعدة بعضها البعض. مع أنّ البعض يؤمن بإله واحد، إلّا أنهم للأسف، يعتقدون أنّه بحاجة إلى مساعدتهم سواء كان ذلك في العمل أو في المعرفة أو في الحثّ. من العجيب وغير المفهوم أنّ أولئك الذين يصلّون لغير الله، يعتقدون في الوقت نفسه أنّه لا يجوز الصّلاة لغيره! من المؤكّد أنّ تعليم الكتاب المقدّس لا يُجيز العبادة ولا الصلاة إلّا لله وحده: "*لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ*" (لوقا ٤:٨). لا يوجد أنواع عبادة مختلفة ولا أنواع صلاة مختلفة ولا حتى أي إشارة لهكذا تقسيم أو تمييز. توجد آية واضحة في الكتاب المقدّس تقول: "*لأنّه يوجد إله واحد، ووسيط واحد بين الله والناس، الإنسان يسوع المسيح*" (١ تيموثاوس ٢: ٥). إن كنّا نؤمن بكلمة الله، فلا يمكننا أن نصدّق أنّه يوجد إله واحد مع العديد من الوسطاء. يوجد إله واحد ووسيط واحد. هذه الممارسة تتعدّى على حقيقة أنّ المسيح هو الوسيلة الوحيدة للخلاص: "*قال له يسوع: أنا هو الطريق والحقّ والحياة. لا أحد يأتي إلى الآب إلّا بي*" (يوحنا ١٤: ٦). ماذا تعني عبارة: "*إلّا*

بي"؟ هذا يعني أنّه لا توجد طريقة أخرى للوصول إلى الله إلّا من خلال يسوع المسيح. إنّه الوسيط الوحيد الذي يصغي. لا يوجد مثال واحد في الكتاب المقدّس بكاملِهِ، الذي يتضمَّن تاريخ شعب الله منذ آلاف السنين، لقدّيس واحد يصلّي أو يعبد قدّيس آخر، أو قدّيس يطلب مساعدة قدّيس ميّت للتوسّط له عند الله. لا يوجد أي مِثال على ذلك إطلاقًا. بينما نقرأ أنّه عندما ركع كورنيليوس أمام بطرس وهو لا يزال على قيد الحياة، أنَّ بطرس انتهره ورفض قائلًا له: "*قم. أنا أيضًا إنسان*" (أعمال الرسل ١٠: ٢٦). هنالك فرق بين الإنسان والله. بغضّ النظر عن مدى قداسة الإنسان، يظلّ بشرًا. لا يعطي الله مجده لآخر. كلّ القدّيسين يستحقّون حبّنا وتكريمنا ويجب أن يكونوا قدوة لنا.

التحدُث مع الموتى ولو كانوا قدّيسين هو شكل من أشكال السِّحر الذي يمارسه الوثنيّون عندما يتحدّثون. يحذّرنا الكتاب بصرامة من التحدّث مع الموتى: "*لا يوجد فيك... من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ولا من يُرقي رقية ولا من يسأل جانًا أو تابعة ولا من يستشير الموتى، لأنّ كلّ من يفعل ذلك مكروه عند الربّ*" (تثنية ١٨: ١٠-١٢) سواء كان هؤلاء

الموتى أبرارًا أم لا، فلن يسمعونا. لو كان الصّالحون الذين في حضرة الله يستمعون إلى صراخ وثرثرة الناس على الأرض، فكيف سيفرحون ويتمكّنون من عبادة الله في السّماء؟ في حضرة الله لا يسمع المرء ما يحدث على الأرض. يقول الله بحزن وغضب في إشعياء ٨: ١٩: "*وإذا قالوا لكم اطلبوا الى أصحاب التوابع والعرّافين المشقشقين والهامسين: ألّا يسأل شعبٌ إلهَه؟ أيسأل الموتى لأجل الأحياء؟*"

تصغير صورة الله

أخيرًا، هنالك ممارسة تُقَلّل من شأن الله وتُصَغِّره. عندما نصلّي، يجب أن نصلّي إلى الله في الأعالي: "*أبانا الذي في السّماوات*". الربّ موجود في السّماء، وليس في زاوية أو على طاولة أو على حائط. الله موجود في السّماوات وإنْ أردنا أن نكون أقرب إليه، لا ينبغي علينا أن نَحُطَّ من قدره ونحاصرَه. إنْ أردنا أن نكون أقرب إليه، فعلينا أن ننظر إليه كما هو في الأعالي. علينا أن نقوم بما يجب لنقترب منه من جهتنا ولا نحدِّده برمز ما ليُصبح قريبًا من صِغرنا نحن. علينا أن نصعد إلى جبل الله

بدلًا من أن نُنزله إلى قياس مُخيّلاتنا ورغباتنا، ولأنّنا لا نريد أن نعبد بالروح والحقّ فقط، نريد أن نعبد بالعيان والحواس. نقرأ في الكتاب المقدّس: «*فبمن تشبّهون الله وأي شبه تعادلون به*» (إشعياء ٤٠: ١٨). الوصيّة الثانية من الوصايا العشر في سفر الخروج ٢٠: ٤ واضحة جدًّا حول هذا الأمر، ولا يمكن تفسيرها بأيّ طريقة أخرى إذ تقول: «*لا تصنع لك تمثالًا منحوتًا ولا صورة ما ممّا في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض*». الربّ في السماوات ولا يقدر أحد أن يقيّده ولا أن يحصره. لا صورة ولا تمثال ما يستطيع أن يُمثّله أو يُعبّر عنه. لا يمكننا كالوثنيين، نقله من مكان إلى آخر. الاقتراب إلى الله بواسطة الرموز المصنوعة بالأيادي تُبعدنا عن الله لأنّنا في نهاية المطاف نراه صغيرًا ومحدودًا وغير قادر على فعل شيء. لا يتكلّم ولا يسمع ولا يرى. الله أكبر من أن يُصوَّر وهو روح يملأ الكُلّ وفي الكُلّ. من تَعرَّف على يسوع الناصري، أصبح فيه وله ولا يوجد حالة تقرّبنا من الله أكثر من ذلك.

الخلاصة

لذلك، بدلًا من الأنانيّة والتذمّر وممارسة صوَر التّقوى الخارجيَّة، على المؤمن كما طلب بولس الرسول من تيموثاوس إبنه في الإيمان، الثبات على *"ما تعلّمت وأيقنت عارفًا ممّن تعلّمت، وأنّك منذ الطفوليّة تعرف الكتب المقدّسة القادرة أن تحكّمك للخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع"* (٢ تيموثاوس ٣: ١٤-١٥). إمَّا أن يكون إيماننا بالكتاب المقدّس، أو بما يمارسه العالم بحسب تنوّعه وضلالاته. يحذّر الرسول بولس تيموثاوس من نجاح هؤلاء: *"ولكنَّ الناس الأشرار المزوّرين سيتقدّمون إلى أردأ مُضِلّين ومُضَلّين"* (٢ تيموثاوس ٣: ١٣). من يريد أن يثبت في الحقّ، عليه أن يعتمد في ممارساته الروحيَّة على الكتاب المقدّس وحده: *"كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البرّ"* (٢تيموثاوس ٣: ١٦). من هذا الكتاب ومن مسيحه نشرب الماء الحيّ، بينما عادات العالم لا تَعِدُ بأيّ شيءٍ إلا بشرب الماء من أبار مُشقَّقة لا تضبط ماءً.

حزن من نوع آخر

كتب الرسول بولس مخاطبًا أولئك الذين فقدوا أخوة أعزاء: "ثمّ *لا أريد أن تجهلوا أيّها الأخوة من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم*" (١ تسالونيكي ٤: ١٣). لماذا يحزن المؤمن بشكل مختلف عن غير المؤمن؟ الخسارة هي نفسها للمؤمن وغير المؤمن، وكذلك المرض واحد، والضعف واحد، والتحدّيات واحدة. كلّنا نحزن، لكن كيف يحزن المؤمنون بطريقة مختلفة عن الآخرين؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال، يجب أن نشرح جانبًا هامًّا من جوانب الحزن. يقول الرسول بولس: "*وأمّا حزن العالم فينشئ موتًا*" (٢ كورنثوس ٧: ١٠) ولكن ليس الأمر كذلك بالنسبة للمؤمنين لأنّ الموت بالنسبة إليهم لا يعني الهلاك. طبعًا الموت مؤلم، لكنّه مفيد. الحزن أو المرارة هما تعبيران إنسانيّان واقعيّان وصادقان لما يحدث معنا. لنكن واضحين منذ البداية أنّ كلّ هذه الأمور هي طبيعيَّة، بل وأكثر من ذلك، هي طاهرة ومقدّسة.

الحزن أمر طبيعي

يدعو البعض إلى رفض الحزن والبكاء بحجّة عدم الإنسجام مع الإيمان الحَيّ، بينما حوالي ٤٠٪ من المزامير هي عن الآلام والمعاناة والحزن والمرارة. حياتنا مليئة بالصعوبات ويجب أن ننظر إلى هذه الحالات على أنّها طبيعيَّة، وبالطبع عندما لا يكون الألم ناتج مباشرة عن نتائج بشعة لخطيئة ما. يجبُ ألّا نعتبر دائمًا أنّ الألم هو عقاب مباشر للخطية في حياتنا ودلالة على عدم الإيمان. على العكس من ذلك، إنّه دليل على وجود المشاعر الإنسانيّة السامية الحقيقيّة، ودليل على الفهم والمحبّة. عندما نعبر في ظروف إنسانيَّة صعبة ليس لها علاقة بالشرور الأدبيَّة، نشعر بالألم والمرارة الشديدة، والمسيح الإنسان هو مثال على ذلك. فمع أنّه طاهر وقدّوس وليس فيه أي خطيئة أو ضعف، بكى من أجل لعازر. بكى من أجل لعازر ومن أجل أورشليم ومن أجل الآخرين على ما ينتظرهم بسبب رفضهم لوصايا الله. بكى المسيح أيضًا في بستان جثسيماني. كان يتألّم وكان يختبر المرارة والحزن مع أنّه طاهر. يصف إشعياء ٥٣: ٣ المسيح بالإنسان المُتألم ومختبر الحزن: ”*مُحتقر ومخذول من الناس.*

رجل أوجاع ومختبر الحزن وكمستّر عنه وجوهنا، مُحتقر فلم نعتدّ به." بالتالي، ينبغي ألّا نعتقد أنّ الإيمان سيجلب المتعة والسعادة في كلّ حين. المحبّة والفهم الروحي يجعلاننا نبكي ونحزن ونشعر بالمرارة على من نحبّ. وهكذا فإنّ الألم والحزن والمرارة منذ البداية هي تعبيرات حقيقيّة وطبيعيّة. نحن نحزن، على عكس الآخرين، لا عن يأس بل عن إيمان لأنّنا أصحاب طبيعة وهويّة جديدة مختلفة تُحبّ وتشفق وتضحّي.

الحزن مع الرجاء

أولًا، نحزن ونحن نمتلك الرجاء. تقول الآية بوضوح: "*لئلا تحزنوا كالباقين الذين لا رجاء لهم*". عندنا رجاء والموت لا يخيفنا. الموت هو طريقنا لكي نكون مع المسيح إلى الأبد. يقول الرسول بطرس: "*بل قدّسوا الربّ الإله في قلوبكم مستعدّين دائمًا لمجاوبة كلّ من يسألكم عن سبب الرجاء الذي فيكم بوداعة وخوف*" (١ بطرس ٣: ١٥). لهذا السبب لا يمكننا أن نحزن مثل الآخرين الذين ليس لديهم هذا الوعد بهذا الرجاء. علينا أن نتذكّر أنّ لنا رجاءً كبيرًا في يسوع المسيح المنتصر، الذي مات وقام ونؤمن أنّه

سيعود للقائنا: "ثمّ نحن الأحياء الباقين سنُخطف جميعًا معهم في السحُب لملاقاة الربّ في الهواء وهكذا نكون كلّ حين مع الربّ"(١ تسالونيكي ٤: ١٧). نوعيَّة الحزن هامّة لأنّ الحزن الذي يأتي مع الرجاء لا يُهيننا بل يُضرِم الجمال الإنساني العاطفي الذي وضعه الربّ في خليقته الخاصة.

الحزن مع السلام

ثانيًا، عندما يحزن المؤمنون، فإنّهم يحزنون وسلام المسيح في قلوبهم وعقولهم. من الخطأ حصر الأمور في الثنائيات أي إمّا الحزن وإمّا السلام، إمّا الجيّد وإمّا السيّء، إمّا العدل وإمّا الظلم. سلام الله معنا حتى في أوقات الحزن والألم. هذا ليس من نسج الخيال لأنّ يسوع وعدنا قائلًا: "*قد كلّمتكم بهذا ليكون لكم فيّ سلام. في العالم سيكون لكم ضيق، ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم*" (يوحنا ١٦: ٣٣). لهذا نتحدّث عن سلام يسوع وليس عن السلام الناجم عمّا يُعرض في العالم من أساليب للتخدير بوسائل متنوعة. نتكلّم عن السلام الداخلي الذي وضعه يسوع فينا. بكلمات أخرى، إنّه يؤكّد لنا أنّه ستكون

هنالك أوقات صعبة، وسنختبر الألم والمرارة، لكنّه أَدخل في هذه الصعوبات التي سمح بها، السلام. قد نشعر بالألم والمرارة ونحن لا نزال في سلام. السلام الحقيقي لا يَنزع الضيقات بل يحتملها. قد نذرف الدموع ونختبر السلام معًا. الإيمان ليس دائمًا حياة سهلة وانتصارات دنيويَّة في كلّ الأوقات، بل ينطوي على مواقف التحدّي والجهاد. هل يُعقل أنّ المسيح لم يكن في سلام عندما بكى من أجل أورشليم، أو في طريقه إلى الجلجثة، أو عندما بكى على لعازر؟ بالطبع لا، فقد كان بسلام تامّ إذ هو ربّ السلام ومعطي السلام. وعندما نبكي، لا نبكي يأسًا، بل نبكي تعبيرًا عن الألم والمعاناة.

الحزن مع رؤية

وهكذا، عندما نحزن مع رجاء في داخلنا، فإنّنا لا نحزن كالآخرين. عندما نحزن بوجود رؤية وهدف، لا نحزن مثل الآخرين. إذا أردنا تعداد فوائد الألم، فستطول اللائحة. للألم فوائد عديدة، لكن يوجد فائدة واحدة عظيمة ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالرؤية والهدف، وهي تعزية الآخرين. فالربّ قدوة لنا في هذا المجال إذ تألّم

أيضًا مِثلنا ولأجلنا. بالتالي، عندما نعاني ونحزن، نتمكَّن من أن نكون مشتركين ومثمرين أكثر في حياتنا. إذا استبعدنا جميع الفوائد الخاصّة أو المحدّدة للحزن، كالتقديس والتطهير والنموّ والتَعَلُّم، وركّزنا على الرؤية والهدف من المعاناة، فسيكون الأمر أجمل بكثير عندما نعاني. يكتب الرسول بولس: "*مبارك الله أبو ربّنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله كلّ تعزية، الذي يعزّينا في كلّ ضيقتنا حتى نستطيع أن نعزّي الذين هم في كلّ ضيقة بالتعزية التي نتعزّى نحن بها من الله. لأنّه كما تكثر آلام المسيح فينا، كذلك بالمسيح تكثر تعزيتنا أيضًا*" (٢كورنثوس ١: ٣-٥). لا نُعطي ما لا نَملِك. عندما نفقد شخصًا عزيزًا، أو عندما نمرض، فهذه فرصة لكي نكون خدّامًا للربّ وشركاء معه في تعزية الآخرين بواسطة اختبارات حقيقيَّة صادقة. أفضل من ألّا تتألَّم هو أن نستطيع أن نُعين المُتألّمين. هكذا، نحن لا نحزن مثل الآخرين لأنّنا في وسط الحزن لدينا الرجاء والسلام والرؤيا والعزاء.

الحزن بهدوء وتواضع

على الرغم من أنّ يسوع يمنح أبناءَه السلام والأمل في وقت

الحزن، إلّا أنَّنا ينبغي أن نحزن بهدوء وسكينة حتى يَتَفعَّل هذا السلام ونستطيع أن نفهم بدقّة ما يريده الله. يجب أن نحزن بهدوء لتمييز الرؤية والغرض، وإلّا لن نقدر أن نواسي الآخرين بعدها. حُزن المؤمنين هادئ، فيه دموع وألم بلا حرج، لكنّه طاهر ومقدّس. ينبغي ألّا يعتقد أحد أنّ أولئك الذين يحزنون في هدوء هم بلا مشاعر، وأنّه لا بدّ من التعبير الصاخب للتخلُّص من الوجع. هذا ليس صحيحًا، بل يجب أن نحزن بهدوء لأنّ الغلبة في الحرب تحتاج لكثير من الصبر والتركيز. يكتب الرسول بولس: "*فقط عيشوا كما يحقّ لإنجيل المسيح، حتّى إذا جئت ورأيتكم أو كنت غائبًا أسمع أموركم أنّكم تثبتون في روح واحد مُجاهدين معًا بنفس واحدة لإيمان الإنجيل*"(فيلبي ١: ٢٧). الحرب لها اتّجاهات مختلفة، فهي مع العالم، والشيطان وعملائه، والجسد المُتهالك. فالكفاح والمقاومة حاجة، والتحلّي بالهدوء والمعرفة ضرورة لكيفيّة التعامل والصمود. هذه الحقيقة الخطيرة لا يمكن إدراكها في وسط الضجيج وطلب تعاطف الناس. شعور الإنسان بالظلم وبأنّه لا يستحقّ ذاك الألم قد يدفعه إلى التّعبير عن الرفض بشدّة. الحلّ هو بالتواضع وقبول تعليم كلمة الله التي تقول إنَّ

لا أحد يستحقّ رحمة الله، بل كلّنا نستحقّ غضبه فقط. هل استحقّ يسوع الألم؟ هل أنا أفضل من الآخرين الذين تألّموا؟ *"رُجموا، نُشروا، جُرّبوا، ماتوا قتلًا بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلّين"* (عبرانيين ١١: ٣٧). فالكبرياء قبل السقوط والإنسان المُتألّم ليس بعيدًا عنه.

وعد الله

أيُّ ألم غير ألم الجحيم رحمةٌ. عندما ندرك ما رتّب لنا الربّ بعد الآلام في هذا العالم، التي لا تضاهي آلامه، سنخجل من أن نتحدّث عن آلامنا. رغم هذا، هو معنا في آلامنا، وفي صعوباتنا. هو يواسينا ويقدّسنا ويطهّرنا. إنّه يستخدمنا ويعوّضنا بالكثير عن القليل الذي نعاني منه. أقلّ ما يمكننا فعله هو ألّا نحزن كالباقين. ماذا وعدنا؟ «*وسيمسح الله كلّ دمعة من عيونهم والموت لا يكون فيما بعد ولا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد لأنّ الأمور الأولى قد مضت*» (رؤيا يوحنا ٤: ٢١). هذا ما ينتظرنا نحن الذين نحزن الآن. التماسيح لا تبكي، لكنّ القديسين يبكون مع الباكين وسيملكون إلى أبد الآبدين.

الفرح المفقود

كشف الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية عن حقيقة رائعة عندما كتب: «*ونحن نعلم أنّ كلّ الأشياء تعمل معًا للخير للذين يحبّون الله الذين هم مدعوّون حسب قصده*» (رومية ٨: ٢٨). كلّ ما يحدث للمؤمنين يتحوّل إلى خير. كلّ ما هو جيّد أو سيّء يتحوّل إلى الخير إذا أحببنا الله، لأنّ هذا هو هدفه. كلّ الذين دعاهم الله دعاهم للخير. هذا هو الوعد، وهذه هي القاعدة التي تغرس السعادة والبهجة في قلوبنا.

ثلاثة أخطاء كبيرة

يجب أن يكون الفرح موجودًا دائمًا في حياتنا. قد ينقص هذا الفرح عندما نفقد شيئًا بسيطًا تُشير له هذه الكلمة: «نعلم». المعرفة أساسيَّة هنا، فالأزمة في الفكر قبل أن تتسرَّب إلى القلب. لذا يجب أن نكون على دراية بثلاثة أخطاء مشهورة في تفسير الآية أعلاه. الخطأ الأوّل هو عندما نرفض كلمة الله المُعلنة

ونُطالب بأن تعمل كلّ الأشياء للخير. طريق الخلاص هو طريق ضيّق وصعب ومليء بالتجارب والمحن. يقول الله إنّ كلّ الأشياء تعمل معًا للخير، لكنّه لم يقل إنّه إذا أرسل إلينا شيئًا لا نحبّه، يمكنُنا رفضه. يجب أن نقبل بصعوبات وتحدّيات هذه الحياة، ونتركها للربّ لكي يعالجها ويحوّلها.

الخطأ الثاني الذي نرتكبه هو البحث عن بدائل لإرادة الله، وكلّها لا تستطيع أن تمنحنا السعادة المُتوقّعة كالأكل والشرب والتنزّه وامتلاك الأشياء وما إلى ذلك... كلّ هذه الأمور هي مجرّد بدائل فارغة. نعتقد أنّه ربّما إذا فعلنا ما نريد، وإذا حقّقنا طموحاتنا، فإنّنا بذلك سنربح السعادة. نضع شروطًا كثيرة ونجعلها أهدافًا ونعمل على تحقيقها فتصبح بدائل لعدم فهمنا وإدراكنا لإرادة الله. لذلك، فإنّ الخطأ الأوّل هو رفض إرادة الله والأشياء التي رتّبها لنا، والإصرار على اختيار ما نراه مريحًا لنا. يقول الله: «كلّ الأشياء» وليس هذا أو ذاك فقط. الخطأ الثاني هو استخدام البدائل، للسعي وراء أشياء أخرى معتقدين أنّها ستمنحنا السعادة، لكن العكس يحدث. لأنّنا عندما نسيء فهم أمور الله، تكون النتيجة أسوأ لأنّنا سنخدع أنفسنا. قد تحدث كوارث ونحن أكثر

من يحزن عليها. ولكن إذا لجأ الإنسان إلى البدائل، فإنّ الكتاب المقدّس واضح: «من يشرب من هذا الماء يعطش أيضًا». الرفض أو اللجوء الى البدائل لا يساعداننا على الإطلاق.

الخطأ الثالث الذي نرتكبه هو عندما نستسلم بسرعة لما يحدث ونرضى بأنّنا لا نستطيع أن نكون أكثر سعادة ممّا نحن عليه. نحن نقبل الفرح الحالي بحقيقة خلاصنا، وأنّنا في يوم من الأيّام سنختبر الفرح الكامل، لكن ليس بالضرورة على هذه الأرض. قد نتظاهر بأنّنا سعداء لأنّنا يجب أن نكون كذلك، لكن في القلب لسنا كذلك. نحن نستسلم للفشل واليأس ونستسلم لحقيقة أنّنا لا نمتلك ما يكفي من الإيمان لنكون سعداء الآن، لأنّنا غير قادرين على فهم كيف أنّ كلّ الأشياء تعمل معًا من أجل خيرنا.

المصدر

يكمن حلّ المشاكل المذكورة أعلاه في عبارة «نحن نعلم». في الحقيقة، قد نصبح سعداء بواسطة الحكمة والفهم. المعرفة الحقيقيّة هي السبيل الوحيد للسعادة. لقد أعدّ الله كلّ الأشياء للخير والصلاح، ولكن يجب أن نعرف ونفهم كيف. في سفر

الأمثال ٣ و٤، يتحدّث سليمان كثيرًا عن هذا الموضوع، والأمر الأوّل يطلبُهُ منّا أن نسعى للحصول عليه دائمًا هو طلب المعرفة والحكمة. يكتب قائلًا: «*طوبى للإنسان الذي يجد الحكمة، وللرجل الذي ينال الفهم. لأنّ تجارتها خير من تجارة الفضّة، وربحها خير من الذهب الخالص. هي أثمن من اللآلئ وكلّ جواهرك لا تساويها. في يمينها طول أيّام، وفي يسارها الغنى والمجد. طُرقها طرق نِعَمٍ وكلّ مسالكها سلام. هي شجرة حياة لممسكيها، والمتمسّك بها مغبوط*». (أمثال ٣: ١٣-١٨) هل الإنسان المبارك هو المحمي من أي سوء؟ كلّا، الشخص المبارك هو الذي يجد الحكمة والفهم لأنّه يسكن في النور. كما يقول يسوع: «*أنا نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة*» (يوحنا ٨: ١٢). يتحدّث يسوع أيضًا عن أهمّ شيء يأتي به النور إلى حياتنا: معرفة الله، والحقيقة، والصليب. لا يتعلّق الأمر بما يحدث معنا، ولا فيما نمتلكه، ولكن في كيفيّة تفسيرنا لامتلاكنا أو فقداننا للأشياء. ليس من خلال الاستسلام للجهل، ولكن من خلال المثابرة في العثور على إجابات. ليس من المفترض أن نؤمن به فحسب، بل يجب أن نفهم لماذا وكيف يفعل الله ذلك.

المقصود هو فهم اختبارات الحياة. يجب أن نحلِّل المعلومات بالإيمان لنفهم كيف تتحوّل الأمور الغريبة التي تجري معنا إلى خيرنا. وهكذا، فإنّ الفهم يجلب الفرح والسعادة، ولكنّنا نجده فقط عندما نطلبه ونسعى إليه. ليس من السهل القيام بذلك لأنّ الأشياء العظيمة والرائعة تتطلّب جهدًا خاصًا لفهم أعماقها. في سفر الأمثال اصحاح ٤: ١، يقول الله: «*إحفظ وصاياي فتحيا*». عبارة «إحفظ» تعني ثَمِّن وتمسَّك وحافظ على. تقول كلمة الله: «*اقتنِ الحكمة، اقتنِ الفهم. لا تنسَ ولا تعرض عن كلمات فمي. لا تتركها فتحفظك. أحببها فتصونك. الحكمة هي الرأس، فاقتنِ الحكمة وبكلّ مقتناك اقتنِ الفهم. ارفعها فتعلّيك، تمجّدك إذا اعتنقتها*» (٥-٨).

يوجد حكمة ويوجد فهم، والحقّ موجود وقد أعلنه الله. لكن إلى أيّ مدى نحبّه ونهتمّ به؟ كثيرًا ما نسمع المؤمنين يقولون إنّ كلمة الله جميلة، لكنّنا لا نفهم هذا أو ذاك. أو نسمعهم يقولون إنّها صعبة أو غير واضحة أو ثانويَّة.

ننال السعادة عندما نحيا في النور، في نور المعرفة والفهم. يقول سفر الأمثال ٤: «*يا بني، اصغِ إلى كلامي. أمل أذنك*

إلى أقوالي. لا تبرح عن عينَيْك. احفظها في وسط قلبك، لأنّها هي حياة للذين يجدونها، ودواء لكلّ الجسد» (٢٠-٢٢). إذًا، الحكمة ضروريّة ليس فقط للنفس أو الرّوح فقط، ولكن أيضًا للجسد. تُعالج آلام المعدة أو الصداع بالوصفات الطبيَّة الصحيحة. كل عطية صالحة من عنده وكل عُشبة شافية هي من اختراعه. فالحكمة تعلّمنا كيف نحافظ على أجسادنا ونعالجها أيضًا. فجميع كنوز هذه الحكمة، أكانت روحيَّة أم جسديَّة، هي منه وحده.

أهمِيَّة الصبر

كما ذكرنا سابقًا، إن كلفة فهم وإدراك الأحداث الصعبة والمعقدة أكبر. يتطلّب الأمر مثابرةً وصبرًا مع جهد كبير. مكتوب في سفر العبرانيين: *«ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع، من أجل السرور الموضوع أمامه، احتمل الصليب مستهينًا بالخزي، فجلس في يمين عرش الله»*. (العبرانيين ١٢:٢). لقد حمل الصليب وهو يعلم عاره لأنّه أدرك الخير الذي فيه لأحبّائه: وهو أن يصنع فداء ويجلس عن يمين الله ويؤمّن الخلاص لشعبه. ماذا

نتعلّم من هذا؟ «*فتفكّروا في الذي احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه مثل هذه لئلّا تكلّوا وتخوروا في نفوسكم*» (العبرانيين ١٢: ٣). لفهم ما يحدث معنا، يجب أن نتحلّى بالصبر، منتظرين عمل المسيح الذي سيُكمل إيماننا الذي بدأَ بهِ هو بنفسه، إذ الإيمان عطيّة منه. هو الذي بدأ وهو الذي يُكمِّل وما علينا إلّا الصبر والثبات. هذه هي نعمة الله التي نحن فيها مقيمون.

طلب الحكمة

إنّ رفض المعاناة في هذا العالم هو رفض مباشر لمشيئة الله. يجب ألّا نلجأ إلى البدائل. يجب ألّا نستسلم للمأزق المؤلم الذي نحن فيه. يجب أن نبحث عن الحكمة والفهم. يجب أن نقول: «يا ربّ، أعطني فهمًا لأعرف لماذا تحدث معي كلّ هذه الأشياء؛ أعطني نظرة روحيَّة ثاقبة لأعرف هدفك من كلّ هذه الأشياء. أرني يا ربّ، كيف تقوم بتحويل «كلّ الأشياء» للخير».

تقول الآية: «نحن نعلم». إن كنّا نحيا بالجهل، فإنّ عقيدتنا عديمة الفائدة. يجب أن نؤمن بأنّ كلّ شيء هو للخير، حتّى لو كنّا لا نرى كيف يُمكن أن يكون ذلك ممكنًا. يا لعظمة وعمق

حكمة الله! والطريقة الوحيدة التي يمكننا الحصول على هذه الحكمة هي بطلبها. نقرأ في رسالة يعقوب ١: ٥: «*وإنّما إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يُعطي الجميع بسخاء ولا يُعيّر، فسيُعطى له*». لن يرفض الله أبدًا طلبنا للحكمة لأنّ هذا ما يريده ويحبّه. هو يُحبّ أن يعطي سرّه ويكشفه لخائفيه إذ قال مرّة «*هل أُخفي عن عبدي إبراهيم ما أنا فاعِلُهُ؟*»

شخص المسيح

الفهم يُسبّب الفرح. ما نخافه يسود علينا. ليس الحلّ بالتجاهل أو التماشي مع ما نخاف منه، بل بفهم قصد الله فيه. مثلًا، عندما يكشف لنا الله كيف سيكون هذا المرض لخيرنا، عندها فقط نقبله فلا نعود نكرهه كما في السابق. لقد أظهر الله لنا هذا في وقت مبكّر. لقد أظهر نفسه لنا في مجده، لا للتباهي بل ليُفرّحنا لأنّنا نحبّه. كلّ هذه الحكمة في مقاصده هي للبهجة والسرور: «*المذخَّر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم*» (كولوسي ٢: ٣). إنّ الطريق إلى السعادة والفرح هو العيش في النور، وفهم الله، ومعرفة ماذا ولماذا تحدث الأشياء معنا، وكيف يغيّر

الله عمليًّا كلّ الأشياء من أجل خيرنا. «تعالوا إليّ»، «أطلبوا وجهي»، فما سيعطيه بالطبع هو ممّا يمتَلِكُه.

الأساس المتين

قبل قول «*كلّ الأشياء تعمل معًا للخير*» يقول الرسول بولس: «*فإنّي أحسب أنّ آلام الزمان الحاضر لا تُقاس بالمجد العتيد أن يُستعلن فينا*» (١٨). هذا يعني أنّ هنالك الكثير من المعلومات التي يجب أن ندركها حتّى نتمكّن من رؤية الحقيقة التي أوحاها الله لنا في هذه الآية. يجب أن يسمع الجنس البشري لوحي الله، لكي يعرفوا سبب وجود اللعنة والفساد، ولماذا نئنّ جميعًا حتى الآن. إذا لم نفهم هذه الحقائق، فلن نعرف سبب حدوث كلّ هذا. يقول بولس: «... بل نحن الذين لنا باكورة الروح، نحن أنفسنا أيضًا نئنّ في أنفسنا متوقّعين التبنّي فداء أجسادنا» (٢٣). وطالما يوجد جسد سيكون هنالك ألم، لأنّ هذا الألم ناتج عن رغبتنا في التخلّص من هذا الجسم. وهكذا تسمح لنا الحكمة بمعرفة ما يحدث لنا، لأنّه «*إن كنّا نرجو ما لسنا ننظره، فإنّنا نتوقّعه بالصبر*» (٢٥). بدون أساس متين وصبر، لا يمكننا توقّع

رؤية ما لا يُرى. يقول إنّ الروح الذي فينا يشفع فينا. هذا يعني أنّه حتى لو كنّا لا نعلم، فإنّ الله يعلم ما نحتاج إليه ويتشفّع لنا ويعمل لصالحنا. إن بَنَينا هذا على مفهوم أنّ كلّ الأشياء تعمل معًا للخير، فإنّ هذه الحقيقة والعديد من الحقائق الأخرى تقودنا إلى واقع جديد يمكننا أن نقول فيه: «نحن نعلم».

الخلاصة

لا يمكننا أبدًا أن نختبر الفرح في عالم مُظلم وشرير، نئنّ ونتعب بجسد في طريقه نحو الفساد، إلَّا إذا عَرفنا وتعرَّفنا على الذي يعمل من وراء الكواليس. لن نفرح إلَّا إذا فهمنا كيف ولماذا تحدث الأمور هكذا ولأيّ غرض في حياتنا.

إذا لم نُدرك يومًا أنَّ الخير والشرّ يعملان معًا لتمجيد الله في النهاية، وأنَّ الكُل جزء من مشروع الله العظيم، وأنّنا من المدعوّين والمختارين لنكون معه من الغالبين ووارثين، لن نختبر السلام ولا الفرح الحقيقيّ أبدًا.

تحدّي الإنتظار

الانتظار هو أحد أكثر التجارب المُزعجة. نقضي نسبة كبيرة من حياتنا في انتظار تحقيق الأحلام، والتقدّم في العمل، والحصول على العدالة ومستقبل أفضل، وما إلى ذلك. والأهم من ذلك كُلّه، نحن كثيرًا ما ننتظر استجابة الله لصلواتنا لحلّ مشاكلنا وإرشادنا في الأوقات الصعبة، لكن نادرًا ما ننجح في مواجهة تحدّي الانتظار. يخبرنا سفر الخروج أنّه بينما كان موسى يتلقّى الوصايا على جبل سيناء، نفد صبر شعبه وتحوّلوا إلى عبادة العجل الذهبيّ. بالمُقابل، إنتظر يعقوب كثيرًا للحصول على زوجته راحيل فنجح، وانتظر يوسف كثيرًا للَمّ شَمل عائلته فحصل بالنهاية على مبتغاه.

يتحدّث الملك داود في المزمور ٣٧ عن تجربته العظيمة وكيف قضى الربّ على كلّ مخاوف قلبه وأنقذه من أعدائه. يتحدّث عن مدى تَمتُّعه بالربّ، وحمايته له. في نهاية المزمور، يُقدّم لنا

تحذيرًا، مع شرط يُعتَمد عليه لتحقيق هذه الامتيازات والبركات ألا وهو: يجب أن ننتظر، اذ يختتم داود هذا المزمور المعزّي بعبارة: «*إنتظر الربَّ واصبر له*» (٧). سوف يخلّص الربّ بالتأكيد ويفدي ويستجيب ويسارع للنجدة بحسب توقيته.

إنتظار الربّ أمر صعب جدًّا. لا يوجد مؤمن يشكّ في قدرة الله على أن يخلّص أي إنسان من أيّ مأزق ويستجيب لأيّ طلبة. الله جاهز وحاضر، لكن قضيّة الوقت مؤلمة. كلّ الأمور التي نَنْتَظرها صعبة ومرهقة لأنَّنا نَنْتَظرها. نتعب من الانتظار في الطوابير لحين مجيء دورنا، نتعب من الانتظار في عيادة الطبيب، نتعب من الانتظار في المطارات أثناء السفر. على الرغم من معرفتنا بما قاله داود عن الله وحمايته وخلاصه لشعبه، تظلّ مسألة الانتظار تحدّيًا مؤلمًا في حياتنا.

التعريف البسيط والمختصر للانتظار الكتابيّ هو التوقّع بصبر ورجاء. تَوقُّع بثقة وشوق وفرح. لذا، كمؤمنين، يجب أن نتوقّع الخلاص والاستجابة والتغيير. نقرأ في مراثي إرميا ٣: ٢٥-٢٦: «*طيّب هو الربّ للذين يترجّونه، للنفس التي تطلبه. جيّد أن ينتظر الإنسان ويتوقّع بسكوت خلاص الربّ*». على الرغم من أنّ

الانتظار صعب للغاية، إلا أنّ تذكّر العوامل الخمسة التالية يمكن أن تجعل من انتظار الربّ أمرًا أكثر سهولة.

الله جدير بالثقة

معرفة كون الله جديرًا بالثقة يلعب دورًا رئيسيًّا في التغلّب على صعوبة الانتظار. يُعتبر انتظار شخص ما أمرًا صعبًا للغاية عندما نشكّ في النتائج التي نتوقّعها. على سبيل المثال، الانتظار في عيادة الطبيب يمثّل تحدّيًا لأنّنا لا نعرف النتيجة؛ لا نعرف ما هي المشاكل التي قد تنشأ أو ما هي الظروف التي قد تتغيّر؛ لا نعرف ما إذا كان طبيبًا جيّدًا أم لا. يُصبح الأمر أسوأ عندما نضع ثقتنا في الشخص الخطأ. يتحدّث الملك داود في المزمور ٥٥: ٢٠-٢١، عن شخص غير جدير بالثقة: «*ألقى يديه على مسالميه، نقض عهده. أنعم من الزبدة فمه، وقلبه قتّال. ألين من الزيت كلماته وهي سيوف مسلولة*». كُلّ ما ننتظره، باستثناء مجيء المسيح الربّ، صعب وغير مؤكّد. الربّ وحده جدير بالثقة وهو صادق وثابت ويفي بوعوده لأولئك الذين ينتظرون بأمانة. يُمجّد المزمور ٢٨: ٦-٧ مصداقيّة الله إذ مكتوب: «*مبارك الربّ*

لأنّه سمع صوت تضرّعي. الربّ عزّي وتُرسي، عليه اتّكل قلبي فانتصرت، ويبتهج قلبي وبأغنيتي أحمده». كذلك يؤكّد المزمور ١٣٠ على أمانة الله لنا: «*لأنّ عندك المغفرة لكي يُخاف منك. انتظرتك يا ربّ، انتظرت نفسي وبكلامه رجوت. نفسي تنتظر الربّ أكثر من المراقبين الصّبح، أكثر من المراقبين الصّبح. ليرجُ إسرائيل الربّ لأنّ عند الربّ الرحمة وعنده فدىً كثير*» (٤-٧). بقدر ما نحن على يقين من أنّ الشمس ستُشرق في الصباح، يجب أن نكون على يقين أنّ وعد الله بخلاصنا سيأتي وسيُتَمَّم. بالإيمان بمصداقيّته، يصبح الانتظار أسهل.

المظاهر خادعة

ليست الأشياء دائمًا كما تبدو، وكما يقول المثل: «ليس كُلّ ما يلمع ذهبًا». غالبًا ما تخدعنا تجربتنا الحسّية: فقد تحتوي تفّاحة حمراء زاهية على ديدان في داخلها؛ والإنسان الذي يظهر بملابس زاهية قد يكون بداخله شيطان. لا يمكن رؤية الحقيقة بالكامل بالعين المجرّدة. يخاطب المزمور ٣٧ خائفي الربّ قائلًا لهم: «*لا تغر من الأشرار ولا تحسد عمّال الإثم، فإنّهم مثل*

الحشيش سريعًا يُقطعون ومثل العشب الأخضر يذبلون» (١-٢). لأنّنا ننظر بأعيننا الخارجيّة، فقد نرى ما نتوقّعه أو نريده. تغشّنا مظاهر الأشرار فنغار ونحسد ونتعجَّب: «*إنتظر الربَّ واصبر له، ولا تغر من الذي ينجح في طريقه، من الرجل المُجري مكايد*» (٧). يطلب الربّ منّا ألّا نحسد الآخرين لأنّ الظروف أو الحالات التي هم فيها عابرة. ما نحتاجه هو أن ننتظر ونرى كيف الأشرار «*مثل العشب الأخضر يذبلون*». حتى لو لم نرَ هذا الآن، إلّا أنّنا سنراه بعد أن ننتظر. لا تأتي البهجة فقط عندما تُستجاب صلواتنا، أو عندما يُحقّق الربّ انتصارًا لنا، على العكس، يجب أن نفرح به ونحن ننتظره. ما يؤكّد هذه الحقيقة هو كلام الربّ لأنّه شخص جدير بالثقة.

توقيت الله أفضل

نتوق بالعادة إلى أن يستجيب الله لنا بسرعة ونطالبه بالردّ الفوري على استفساراتنا. نريد حاجاتنا الآن وليس لاحقًا. هل من الممكن أن يكون توقيتنا أفضل من توقيت الربّ؟ بالتأكيد لا، لأنّ توقيته أفضل بكثير من توقيتنا فهو يأتي في وقته المناسب.

كلّ ما يقرّره الله، يقرّره في وقته المناسب. من الجيّد حقًا أن نتذكّر أنّه بينما ننتظر بألم، فإنّ آلامنا ومعاناتنا هي لمصلحتنا ولاستقبال بركات الله: «*فلا نفشل في عمل الخير لأنّنا سنحصد في وقته إن كنّا لا نكلّ*» (غلاطية ٦: ٩). مكتوب في المزمور ١٤٥: ١٥: «*أعين الكلّ إيّاك تترجّى، وأنت تعطيهم طعامهم في حينه*». كلّ طرقه وأفعاله صالحة، سواء قام بها بسرعة أو ببطء، الآن أو لاحقًا. إنّه بارّ وصالح، متى أراد أن يتدخّل وكيف يتدخّل. هذا يعني أنّه عندما ننتظر أثناء تعرّضنا للمضايقة، وبينما ننتظر الوقت المناسب، هذا لا يعني أنّنا نتعرّض لمزيد من الاضطهاد، فالله يستغلّ وقت الانتظار لزيادة إيماننا وإحداث التغيير والقوّة في حياتنا. هو قبل وخارج وأبعد من الزمن ولا يمكن أن يعمل في حدود الزمن.

الانتظار ينتج عنه التغيير

بما أنّ الله جدير بالثقة، وبما أنّ المظاهر خادعة، وبما أنّ توقيت الربّ أفضل من توقيتنا، يجب أن نضع في اعتبارنا أيضًا أنّ الانتظار ينتج عنه تَعَلُّم وتغيير. نتعلّم من خلال التجربة التي

نمرّ بها، وفي الوقت الذي ننتظر فيه الراحة نختبر التغيير. عندما ننتظر شيئًا ما، يحدث تغيير فينا، هكذا خلقنا الله. الانتظار هو أحد الأشياء الأساسيّة التي يستخدمها الربّ ليعمل فينا ويغيّرنا للأفضل. في علم التربية، نعلم جميعًا أنّ الإشباع الفوريّ لرغبات الأطفال أو طلباتهم يُفسدهم. من المبادئ التربويّة الحكيمة في تعليم الأطفال هو التدريب على الانتظار والتوقّع. من خلال انتظار الربّ، نتعلّم القناعة والصبر والتضحية والتحمل والتعاطف، إلخ.

كتب الرسول بولس إلى أهل كورنثوس هذه الآيات الشهيرة التي تؤكّد أنّ الانتظار يعلّمنا ويغيّرنا: «*لذلك لا نفشل بل إن كان إنساننا الخارجيّ يفنى، فالداخل يتجدّد يومًا فيومًا، لأنّ خفّة ضيقتنا الوقتيّة تنشئ لنا أكثر فأكثر ثقلَ مجد أبديًّا. ونحن غير ناظرين إلى الأشياء التي تُرى، بل إلى التي لا تُرى، لأنّ التي تُرى وقتيّة، وأمّا التي لا تُرى فأبديّة*» (٢ كورنثوس ٤: ١٦-١٨). إذا اتّفقنا على أنّ شيئًا ما مفيد، يجب ألّا نتفاجأ أو نغضب أو نحزن عندما يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للحصول عليه. نحن نعلم أنّه إذا كان مفيدًا، فكلّما طال وقت حدوثه، أصبح أكثر فائدة. الألم والمعاناة والانتظار لا تسحق المؤمن بل تبنيه.

تظهر فائدة الانتظار في تواضعنا واستسلامنا للربّ. نتعلّم أنّ لدينا رجاء في يسوع المسيح، وأنّ لدينا وعد في الحياة الأبديّة. في الانتظار يصبح الإنسان أكثر تقديرًا لبركات الربّ وأكثر توقُّعًا للخير. كلّ ما يجب أن نفعله هو أن نثق في الشخص الأكثر جدارة بالثقة: المسيح. يخبرنا الكتاب المقدّس من خلال العديد من الأمثلة أنّ الانتظار أو المثابرة يُحسِّن شخصيتنا. يقول الربّ في إشعياء ٤٠: ٣١: «*وأمّا منتظرو الربّ فيجدّدون قوّة، يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون*». بكلمات أخرى، لا يجعلنا الانتظار أقوى ضدّ الآلام التي نمرّ بها فحسب، بل يجعلنا أيضًا أكثر إيمانًا بالربّ يسوع المسيح.

الانتظار يُقلّص المسافة

أخيرًا، يجب أن نتذكّر أنّ الانتظار يقرّبنا أكثر من الربّ ويجعلنا متّحدين معه. من المعروف أنّه كلّما زاد الوقت الذي ننتظره، زادت الفرصة أمامنا لفحص موقفنا تجاه ما ننتظره. على سبيل المثال، كلّما انتظرنا وظيفة جديدة، زاد تقييمنا لما يمكننا القيام به بالوظيفة الجديدة، لذلك ينتهي بنا الأمر بدراستها وتحليلها

وفهمها والاستعداد لها بشكل أفضل. وبذلك نكون قريبين جدًّا من الوظيفة الجديدة وجميع متطلّباتها، رغم أنّنا ما زلنا بعيدين عنها. بالطريقة نفسها، عندما ننتظر الله، يقوى إيماننا، وتقترب المسافة بيننا وبينه لأنّنا نثق به وبوعوده.

ومن الحقائق المعروفة أيضًا أنّه عندما ننتظر شيئًا نحبّه، فسنحبّه أكثر بعد الانتظار؛ سنفهمه ونعرفه أكثر ونتوق إليه أكثر - وكلّ ذلك يقرّبنا منه. الربّ ليس معنا جسديًّا فهو قد قام من بين الأموات وصَعِد إلى السماء. مع ذلك، يمكننا أن نختبر الاتحاد معه بفاعليَّة أكثر من خلال انتظاره. خلال فترة الانتظار هذه، نقدّر بركاته وحبّه ورعايته، ووعده لنا بأنّه لن يكون بعيدًا. وبالتالي، بالإضافة إلى ما سنتعلّمه والأمور التي ستتغيّر فينا، فإنّ الاقتراب منه والوعي على حقيقة الاتّحاد معه أمر خاصّ جدًّا. في انتظاره، نحن أقرب إليه. عندما نصرخ طالبين وجهه، نقترب منه حتى مكانيًّا وزمانيًّا. لا تفصله عنّا لا مسافة ولا وقت.

الخلاصة

الانتظار صعب دائمًا، لكنّه يصبح أسهل عندما نفهمه بشكل

أفضل. قد يتضمّن الانتظار نعمة لسنا على علم بها. نعمة تعلّمنا أن الله أمين، والمظاهر خادعة، وتوقيته دائمًا أفضل، وأنّ في الانتظار تَعَلُّم وتغيير، وأنّه يوجد المزيد من الاقتراب مع الربّ أثناء الانتظار. يسوع المسيح هو «صخرتنا وخلاصنا وملجأنا» عندما ننتظره. عندها يمكننا أن نترنّم بهذا النصر قبل أن يأتي، لأنّنا نختبره ونعرفه «*ولذلك ينتظر الربّ ليتراءف عليكم، ولذلك يقوم ليرحمكم، لأنّ الربَّ إله حقّ. طوبى لجميع منتظريه*» (اشعياء ٣٠: ١٨).

متى تُستجاب الصّلوات

يكتب الرسول يعقوب في رسالته: «*وصلاة الإيمان تشفي المريض والربّ يقيمه، وإن كان قد فعل خطيّة تُغفر له. إعترفوا بعضكم لبعض بالزلّات، وصلّوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا. طلبة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها*» (٥: ١٥-١٦). قوّة الصلاة واضحة بشكل جليّ في هذا المقطع ويشجّعنا يعقوب أن نمارسها: «*أعلى أحد بينكم مشقّات؟ فليصلّ. أمسرور أحد؟ فليرتّل*» (٥: ١٣). لدينا امتياز أن يكون لنا فرصة كبيرة بأن يستجيب الله لصلواتنا. في الأوقات العصيبة نلجأ إلى الصلاة لأنّه كما يقول الكتاب: «*طلبة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها*». قدّم يعقوب مثال النّبي إيليا عن صلاة كهذه: «*كان إيليّا إنسانًا تحت الآلام مثلنا وصلّى صلاة أن لا تُمطر فلم تُمطر على الأرض ثلاث سنين وستة أشهر. ثمّ صلّى أيضًا فأعطت السماء مطرًا وأخرجت الأرض ثمرها*» (٥: ١٧-١٨). مَنْ مِنَ البشر لا يواجه صعوبات أو أمراض أو احتياجات؟ من المؤكّد أنّ فهم قوّة الصلاة وأهمّيتها

أمر أساسيّ، لكن يوجد أسئلة هامّة أخرى: هل يستجيب الله لأيّ صلاة؟ متى تُستجاب صلواتنا؟ مرّات عديدة نصلي ولا نحصل على إجابات! متى تُستجاب الصلوات كما حصل مع إيليا، ومع أولئك الذين حصلوا على الشفاء الإلهيّ؟

صلاة الوثنيّين

أوّلًا، تُستجاب صلواتنا عندما نصلّي بخلاف صلوات الأمم: «*وحينما تُصلّون، لا تُكرّروا الكلام باطلًا كالأمم*» (متى ٦: ٧). بما أنّ الصلاة ممارسة شائعة جدًّا لدى الجميع، فقد تتأثَّر الصلوات ببعضها البعض. يصلّي الناس من جميع الأديان، لكنّهم يميلون إلى التقليد والتعلّم من بعض العادات السيّئة التي تُفسد المعنى الحقيقي للصلاة. وبالتالي، إذا أردنا أن يستجيب الله صلواتنا، فيجب ألّا نصلّي مثل الآخرين. يجب أن نولي المزيد من الاهتمام للأشياء التي ينبغي ألّا نقومَ بها. يُحبّ الناس الصلوات العامّة التي يُمكن للآخرين أن يسمعوها بينما يُعلِّم المسيح: «*وأمّا أنت فمتى صلّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصلّ إلى أبيك الذي في الخفاء، فأبوك الذي يرى في*

الخفاء يُجازيك علانية» (متى ٦: ٦). من الهامّ جدًّا أن نعرف لماذا نصلّي. هل نصلّي لكي يرانا الناس؟ أم نصلّي لأبينا؟ إذا كانت صلاتنا أمام الناس مختلفة عن تلك التي نصلّيها على انفراد، فهي ليست صلاةً حقيقيّة.

أيضًا، يجب أن نحذر بشأن التكرار المشهور بين الأمم: «*وحينما تصلّون لا تكرّروا الكلام باطلًا كالأمم، فإنّهم يظنّون أنّه بكثرة كلامهم يُستجاب لهم*» (متى ٦: ٧). الآية بسيطة جدًّا ولا تحتاج إلى شرح. من قال «أبانا» مرّة، لا داعي لتكرارها مِرارًا. إنّه لأمر مخزٍ أن يُقَلِّد المؤمنون الوثنيّين الذين يردّدون كلماتهم. يكفي أن ندعو الله مرّة واحدة بوضوح ودقّة فيسمع. الصّلاة القلبيّة الصادقة هي كلمات قليلة وواضحة. لا يستجيب الله لصلوات مُطَوَّلة محشوّة بألفاظ مُنمّقة، فالإله الحقيقي يعرف ما نحتاج إليه حتى قبل أن نسأل.

القلب الصادق

مع ذلك، فإنّ رفع الصلاة بطريقة مُخالفة للآخرين لا تكفي لكي يستجيب الله صلواتنا. يجب أن نعرف كُلّ شروط الصلاة

المُستجابة وأوّلُها: «*لنتقدّم بقلب صادق في يقين الإيمان، مرشوشة قلوبنا من ضمير شرّير، ومُغتسلة أجسادنا بماء نقيّ*» (العبرانيين ١٠: ٢٢). إذًا، الأمر الثاني هو الصلاة بقلب صادق. ما هو القلب الصادق؟ إنّه قلب مُخْلِص وطاهر لا يُخفي شيئًا؛ إنّه قلب صافٍ. القلب الصادق لا يقول شيئًا ويُخفي شيئًا آخر. هذا لا يعني أنّ على قلبنا أن يكون قلبًا كاملًا بلا خطيّة، لأنّه لا أحد من البشر يمتلك مثل هذا القلب. يجب أن تكون نوايا الصلاة طاهرة ونقيّة وصادقة. الصلاة ليست مجرّد كلام خارجيّ بل هي تعبير داخليّ. أوضح المسيح أنّ هذا أمر هامّ بالنسبة إليه حين قال: «*يقترب إليّ هذا الشعب بفمه، وأمّا قلبه فمُبتعد عنّي بعيدًا*» (متى ١٥: ٨). زيادة الصلاة في الأماكن العامّة أو الخاصّة والتكرار والصراخ لن يفي بالغرض.

يمكننا أن نصلّي بدون استخدام للكلمات لأنّ الله يعرفها بالفعل. يريد الله قلوبنا. على الرغم من أنّ القلب لا يتكلّم، إلّا أنّه يشعر ويتألّم ويصرخ بلا كلام. كتب داود: «*إن راعيتُ إثمًا في قلبي لا يستمع لي الربّ*» (المزمور ٦٦: ١٨). يعترف داود أنّ قلبَه يراعي خطيّة، بدلًا من أن يقول إنّه ارتكب خطيّة في حياته. هذا يعني

أنّ قلبه تلوَّث وقد وجدَ الشرُّ مكانًا في حياته.

لا يسمع الله الصلوات المرفوعة كلَّها، ولا يسمع إلّا صلوات الصادقين الطاهرين، أي الذين يطلبون بالفعل سيادته وتدخّله وتبعات ذلك. كبشر، لدينا عيوب وخطايا في حياتنا. نحن غير كاملين ولكن يمكن أن نتمتّع بقلوب صادقة إذا طهّرها يسوع. قد يرتكب شخصان الخطيئة نفسها، لكنّ الله يعرف قلب كلّ واحد منهما ويستمع ويستجيب للشخص الذي يتمتّع بقلب صادق. يكذب القلب عندما لا يحبّ الله ويتظاهر بمعرفته. فالمعرفة تقود إلى علاقة وهذه العلاقة هي البنوّة الجديدة. فمن لا يُعامل الله كأب، كيف يدعوه أبانا؟

يخبرنا الله في سفر إرميا عن مصدر القلب الصادق: «*وأعطيهم قلبًا ليعرفونني أنّي أنا الربّ فيكونوا لي شعبًا وأنا أكون لهم إلهًا لأنّهم يرجعون إليّ بكلّ قلبهم*» (٢٤: ٧). لا يوجد أدوات تطهير يمكنها تَبييض أيّ قلب. لا شيء يُطهّر القلب إلّا الربّ الإله، لأنّه هو الذي وهبنا إيّاه وهو وحده يستطيع أن يخلق فينا قلبًا جديدًا نقيًا. لا أعمالنا ولا ندمنا الشديد يقدران أن يُطهِّرا قلوبنا. الصلاة المقبولة هي من القلب الذي عاد إلى الربّ، من القلب

الذي تاب واعترف أنّه له.

الله قادر أن يعمل فينا ويُعلن لنا أنّنا صادقون في حبّنا وتوبتنا وعودتنا إليه. إن كنّا نتمتّع بقلب صادق، فالله يستجيب لنا. يريد الله قلبًا صادقًا مُتعبًا تائبًا مستسلمًا له فقط.

الصلاة بإيمان

لكي تستجاب صلواتنا، يجب أن نصلّي بإيمان. ماذا يعني الإيمان؟ الإيمان هو أن نتوقّع أنّ الله سوف يعطينا الأفضل، وليس بالضرورة ما نطلبه. عندما نسأل الربّ يجب أن ننتظر استجابة منه. الإيمان لا يبحث عن أي إجابات أو حلول في أماكن أخرى. يجب أن نؤمن أنّ الربّ وحده سيعطينا: «*أنّه من إحسانات الربّ أنّنا لم نفنَ، لأنّ مراحمه لا تزول. هي جديدة في كلّ صباح. كثيرة هي أمانتك. طيّب هو الربّ للذين يترجّونه، للنّفس التي تطلبه*» (مراثي ارميا ٣: ٢٢-٢٣، ٢٥). يجب أن نصلّي بثقة أنّ الله عادل يسمع ويهتمّ. ثقتنا كامنة فيه لأنّه العصا التي نحتاجها.

الصلوات التي تحتوي على الإيمان والمحبّة والاعتماد على الله سيُستجاب لها، وليس تلك التي تتخلّى عن طلب معونة الله، بحجّة أنّ الله لا يتعامل معنا بإنصاف. أمام المؤمنين دائمًا مراحم الله مهما بلغت الصعوبات. إنّهم مُمتنّون لأنّه كان يمكن أن تكون هذه الصعوبات أسوأ بكثير والعبرة في النهاية. مهما كانت الاستجابة، نحن بالفعل غير مُستحقّين، لذلك يجب أن نكون دائمًا شاكرين لكلّ ما يقدّمه لنا الربّ، ويجب أن نستمرّ بشكره وإن لم يفعل ما طلبناه منه.

علاوة على ذلك، فإنّ صلاة الإيمان تتجنّب العناد والإصرار على إجابات مُصمّمة وفقًا لمواصفاتنا. يجب أن تتضَمَّن صلاة الإيمان «لتكن إرادتك» لأنّنا نعلم أنّ مراحمه لا تنتهي. هل نشعر أنّ الله صالح عندما نصلّي إليه؟ أم نعتبره بعيدًا وغير مبال؟ بالإيمان نرى دائمًا صلاح الله. نلاحظ الشرّ والألم، لكنَّ الإيمان يخبرنا أنّ الله صالح وبارّ رغم وجود هذا الشرّ. يجب ألّا ننتظر خلاص الله بتذمّر، بل بهدوء لأنّه «*جيّد أن ينتظر الإنسان ويتوقّع بسكوت خلاص الربّ*» (مراثي ارميا ٣: ٢٦).

الصلاة والهويّة

صلاتنا مرتبطة بهويتنا. مع الله، يتطهّر ضميرنا الشرّير. يعترف المؤمنون الحقيقيّون بخطاياهم ويدركون أنّهم مُطهّرون بدم الحمل. إن كان ضميرنا يُخبرنا أنّنا خطاة وأنّ أجسادنا تشدّنا نحو الشهوة والذنوب، فهل يمكننا أن نصلّي؟ نعم، يمكننا أن نصلّي عندما نتذكّر أنّ هذا الضّمير قد رُشّ عليه دم المسيح، وأنّ خطايانا غُفرت من أجل المسيح. عندما نعرف هوّيتنا، نصلّي بإيمان. إن كنّا لا نمتلك الإيمان، أو إن كنّا أبرارًا في أعين أنفسنا فصلواتنا لا تتعدَّى الأوهام.

نصلّي بإيمان تحت الصليب وتحت الدمّ ومن خلال كفّارة المسيح. نصلّي بقلب صادق ومحبّة وخضوع ومعرفة لهُوّيتنا الحقيقيّة. إنّ الله يستمع إلى صلاة الخطاة، ولكن إلى الخطاة المعترفين التائبين: «*إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كلّ إثم*» (١ يوحنا ١: ٩).

لا يريدنا الله أن ننظر إليه ونقول إنه نبيّ ونحن لا نستطيع أن نكون مثله. يقول الله عن إيليّا فيما يختصّ الصلاة: «*كان إيليا إنسانًا تحت الآلام مثلنا*» (يعقوب ٥: ١٧). كان يشعر

بالإحباط، وأخطأ في حساباته مرّات عديدة، حتى أنّ الله انزعج مرّة من كلامه فاستبدله بنبيّ آخر في النهاية. إذًا، كان إيليا رجلًا تحت الآلام مثلنا واستطاع أن يصلّي وينتصر رغم إخفاقاته.

يستمع الله إلى صلوات الضعفاء والمساكين وليس إلى الذين يظنّون أنّهم أقوياء: «*هذا المسكين صرخ والربّ استمعه، ومن كلّ ضيقاته خلّصه*» (المزمور ٣٤: ٦). إنّ الله يستمع إلى المجروحين والساقطين والمكسورين والمتعبين والذين يرون أنفسهم غير مستحقّين إذ هم يعترفون بخطاياهم. إنّه يسمع لأولائك أكثر ممّا يسمع للمتديّنين. يسمعنا الله عندما نأتي إليه بتواضع وبشعور صادق بعدم الاستحقاق. ولكن عندما نأتي إلى الله ونذكّره بأنّه مُلزم بالاستماع إلينا، فهذا بعيد عن الإيمان.

الله لا يستمع فقط لمن لا حول لهم ولا قوّة، بل يتعاطف ويسجل دموعهم التي هي ليست علامات ضعف بل تعبير عن عاطفة حقيقيّة. الله يلاحظ الدموع ويُسجّلها. قال الربّ لحزقيا: «*قد سمعتُ صلاتك، قد رأيتُ دموعك. هأنذا أضيف إلى أيّامك خمس عشرة سنة*» (اشعياء ٣٨: ٥). يقول داود لله: «*تيهاني راقبت. إجعل أنت دموعي في زقّك. أما هي*

في سفرك؟» (المزمور ٥٦: ٨). يسجّل الله دموعنا واحدة تلو الأخرى لأنّها عزيزة عليه. صلاة الإيمان قد تذرف الدموع، لكن لا عن يأس بل تعبيرًا عن الألم. عندما نعلم في قلوبنا أنّ الله لا يسخر من آلامنا، بل يتعاطف معنا ويستجيب صلواتنا، فهذه هي صلاة الإيمان.

الصلاة والوضوح

يستجيب الله صلواتنا عندما نصلّي بوضوح. ما هو الوضوح؟ إذا ذهب أب للتسوّق مع ابنه وقال له: «أطلب ما تريد وسأشتريه لك». فيجيب الإبن: «اشترِ لي كُلّ ما في هذا المتجر»، هل سيفعل الأب ذلك؟ بالتأكيد لا، لأنّ رؤية الطفل للأمور خاطئة وضبابيّة.

طلبة البار تقتدر كثيرًا في فعلها، ليس لأنّ البارّ هو الشخص الذي لا يُخطئ، بل هو الشخص الذي طهّر الله قلبه وعقله وعينَيه، وبدأ يرى الأمور بوضوح من منظار روحي. الوضوح في الإيمان هو من علامات البرّ. تتغيَّر الأمور عندما يتعرَّف الطفل على أبيه أكثر وينمو في المعرفة والفهم والحكمة. قد يتهوّر بالبداية في

طلبه، لكن إذا لازَمَ والده، مع الوقت، سيوضّح له الصورة ثمّ يستجيب لطلبه المُعدَّل أو المُصحَّح. هذه هي الصلاة بوضوح وهي بحسب إرادة الله ووعوده ووصاياه. الذين لا يعرفون مشيئة الله ووعوده ووصاياه هم أطفال بالإيمان، ويظنُّون أنّ لهم الحقّ بالمطالبة بما يخطر على بالهم أو ما يرغبونه فيه بشدّة.

قبل أن نطلب طِلبة على مستوى طِلبة إيليا، هل نسأل إن كان لدينا إعلان من الله مثل إيليا؟ في سفر التثنية، يُخبر الله شعبه أنّهم إذا أخطأوا وعملوا الشرّ، فسوف يضربهم بالجفاف. لذلك، لم تكن صلاة إيليا عشوائيّة بمعنى أنّه استيقظ ذات صباح، ولأنّه لم يكن هناك مطر، قال لنفسه: «سأصَلّي من أجل المطر». لقد أعطى الله إيليا المعرفة لأنّ إيليا كان قريبًا منه وكان صوته وخادمه، وبالتالي عندما صلّى، صلّى بوضوح.

قبل الصلاة، يجب أن نحاول فهم ما يريده الله منّا. هذه هي الصلاة بحسب مشيئة الله. مهما طلبنا باسمه ومهما سألنا منه هو تحت شرط الموافقة مع إرادته ووصاياه ووعوده. هذا الشرط مؤكّد وواضح «*وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنّه إن طلبنا شيئًا حسب مشيئته يسمع لنا*» (١ يوحنا ٥: ١٤) .

هل مشيئة الله دائمًا هي راحتنا وتمتُّعنا؟ بالطبع لا. مشيئة الله ليست لراحتنا في كلّ الظروف. مشيئة الله الدائمة هي اقترابنا منه، وقداستنا، وخدمتنا. نعرف قلب الله وفكره من خلال كلمته، ومن خلال معرفتنا بصفاته وتعامله مع شعبه، عِندها نقدر أن نطلب بحسب إرادته. يكتب يوحنا مؤكّدًا هذا الشرط: «*ومهما سألنا ننال منه لأنّنا نحفظ وصاياه ونعمل الأعمال المرضيّة أمامه*» (١ يوحنا ٣: ٢٢). يجب ألّا نطلب ما يُخالف وصاياه. هل نطلب موت أعدائنا بينما هو بالمقابل أوصانا أن نحبّهم؟ يقول الربّ يسوع: «*إن ثبتّم فيّ وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم*» (يوحنا ١٥: ٧).

أيضًا، أحيانًا تكون طلباتنا بدون فهم صحيح للرؤى النبويَّة التي تَعِد بزمان راحة وبانتصار. متى سيرعى الأسد بجانب الخروف في الحقل؟ متى لن يكون هناك موت في ما بعد؟ لن يمدّنا الله ببركات معدّة للحياة الأبديَّة في الزمان الذي أكَّد أنه سيكون لنا فيه ضيق.

لدى الله خطّة ثابتة، والأشياء تحدث وفقًا لتوقيته وليس وفقًا لتوقيتنا. هنا يخطئ البعض في اعتقادهم أنّه إذا كان لديهم

إيمان كافٍ، فإنّ الله سيفعل أيّ شيء. الله لن يفعل أيّ شيء بالمطلق لمجرَّد وجود إصرار، بل سيفعل ما هو حسب إرادته ووصاياه ووعوده وتتميمًا لخطّته في الوقت المعيَّن. الإصرار والتوقُّع هنا ليس دلالة على الإيمان بل على سوء الرؤيا. الخضوع والتسليم للمشيئة الإلهيّة هو الدّلالة الصحيحة على الإيمان.

بالإضافة إلى معرفة إرادة الله ووصاياه ووعوده، يتطلّب الوضوح قلبًا نقيًّا يغفر للآخرين. يعلّمنا الله هذا: «*ومتى وقفتم تصلّون، فاغفروا إن كان لكم على أحد شيء لكي يغفر لكم أيضًا أبوكم الذي في السّماوات زلّاتكم*» (مرقس ١١: ٢٥). لذا، فإنّ أي قلب لا يغفر للآخرين لن يحصل على مُبتغاه. حتى في المقطع الذي يتحدّث عن إيليا نقرأ في رسالة يعقوب: «*اعترفوا بعضكم لبعض بالزّلّات، وصلّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا. طلبة البارّ تقتدر كثيرًا في فعلها*» (يعقوب ٥: ١٦). عدم التسامح هو أكبر عقبة أمام الحصول على الوضوح فيما نطلبه. فالخطية هي عائق بيننا وبينه.

بالخُلاصة، عندما نُتمّم شروطه، يُمكننا المطالبة بوعوده: «*وادعني في يوم الضّيق، أنقذك فتمجّدني*» (المزمور ٥٠: ١٥).

كيف نحارب الشكّ؟

ذات مرّة، أتيحت الفرصة لبطرس أن يمشي على الماء. بدأ يمشي، لكنّه سرعان ما اضطرب حين رأى الريح العاتية، وهذا أدّى الى زعزعة إيمانه فبدأ يغرق، فصرخ إلى الربّ فورًا ليخلّصه. قال له الربّ: «*يا قليل الإيمان، لماذا* شككت؟» (متى ١٤: ٣١). أراد يسوع ألّا يشكّ بطرس أثناء هذه المجازفة واختبار قوّة الإيمان. بسبب الشكّ نفقد البركات الإلهيّة ونُحرم من الوصول إلى أماكن جميلة ومستويات مرتفعة في رحلة الإيمان.

الشكّ حاضر سواء كنّا أبناء الله أم لا. قد نشكّ في قوانين الإيمان والوصايا والمفاهيم الروحيّة. نشكّ في الكثير من الأشياء وحتّى أحيانًا في سلطان الله ومحبّته، خاصّة في الأوقات الصعبة. الشكّ يُرهقنا ويجعلنا متردّدين وخائفين، ويدفعنا لمراجعة الأمور الأساسيّة في حياتنا، ممّا يُبطئ تقدُّمنا ويُهَدِّد سلامنا. كان بإمكان بطرس أن يكون لديه إيمان كافٍ ولا يشكّ في إنهاء

تحدّيه منتصرًا ويكون قادرًا على فعل شيء لم يفعله أحد من قبل. لكنّه لم يفعل ذلك.

كيف نتعامل مع هذا الشكّ المُكلف؟ بعض الأسئلة التي يمكن أن نطرحها على أنفسنا قد تساعد على محاربة الشكّ والتغلّب عليه.

كلمة الله

هل إيماننا مبنيّ على ثقتنا بالناس والكنيسة والآباء والتقاليد؟ هذا النوع من الإيمان مبنيّ على أُسس غير آمنة وهي تربة خصبة للشكّ. السؤال الأوّل الذي ينبغي طرحه هو: ما هو أساس إيماننا؟ يجب أن يقوم الإيمان على كلمة الله وليس على الأشياء التي ورثناها أو سمعناها أو تعوَّدنا عليها.

كلمة الله تعلّمنا أنّ إيماننا يجب أن يُبنى على كلمة الله، الشّيء الوحيد الثابت. وعندما نشكّ في أمر ما، يجب أن نسأل: «من أين أتيتُ أصلًا بهذا الإيمان الذي يتعرَّض للتهديد الآن؟ هل تعلَّمته أو جاء صُدفة، أم بسبب رغبة منّي بأن أكون مؤمنًا؟ هل

بُني هذا الإيمان حقًا على كلمة الله. يؤكّد بطرس في رسالته الثانية ١: ١٨ على أحد أسباب ثقته بشخص المسيح إذ كتب: «*ونحن سمعنا هذا الصوت مُقبلًا من السماء إذ كنّا معه في الجبل المقدّس*». يتذكّر ويراجع ما قد بُني إيمانه عليه.

مَثَلًا، من يشكّ بخلاصه عليه أن يتذكر أنَّ خلاصه هو نتيجة عمل الربّ الكامل على الصليب: «*عالمين أنّكم افتديتم لا بأشياء تَفنى بفضّة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلّدتموها من الآباء، بل بدَمٍ كريمٍ، كما من حَمَلٍ بلا عيب ولا دَنَس، دم المسيح*» (١ بطرس ١: ١٨-١٩). فهو ليس نتيجة أعمال صالحة أو سيرة تقيَّة إذ ليس لنا أي دور فيه. فحتى لو أخطأنا أو شككنا لن تتَغيَّر حقيقة خلاصنا.

تقع على عاتقنا مسؤوليّة دراسة كلمة الله ومعرفة قوّتها. صمدت كلمة الله منذ آلاف السّنين في وجه كلّ التحدّيات والشكوك والدراسات والنقد من مسيحيّين وغير مسيحيّين. إنّها ثابتة بالبَراهين والأدلّة والتاريخ. عندما ندَّعي أنّنا نؤمن بهذا أو ذاك، يجب أن يكون لدينا دليل من كلمة الله. يشكّ الكثيرون لأنّهم لا يعرفون كلمة الله التي تُعطي اليقين والقوّة والإيمان.

على الرغم من أنّنا نؤمن بها، كلمة الله تولِّد فينا الإيمان عندما نسمعها لأنّها حقيقيّة ولأنّها كلمة الله نفسه. إنّ كلمة الله ثابتة ودائمة، بينما تلك الناتجة عن مصادر أخرى تذبل وتضمحل: «*لأنّ كلّ جسد كعشب وكلّ مجد إنسان كزهر العشب. العشب يبس وزهره سقط، وأمّا كلمة الربّ فتثبت إلى الأبد، وهذه هي الكلمة التي بُشّرتم بها*» (١ بطرس ١: ٢٤-٢٥). وهكذا، فإنّ الرَّد الأوَّل على تحدي الشكّ، هو أنّ إيماننا يجب أن يُبنى على كلمة الله، وإذا كنا لا نعرفها، فعلينا أن نتحمّل مسؤوليّتنا ونغور في أعماقها.

اليقين

لا أحد يشكّ في كلّ شيء في المطلق. الجميع يشكّ، ومن الطبيعي جدًّا أن يكون لدينا شكّ. يحضر الشكّ في كثير من الأمور، لكن الأفضل ألّا نركّز على الأمور المُتعلّقة بالشكّ بل على الأشياء التي نحن على يقين منها. من يبني إيمانه على كلمة الله، يعرف أنّ هناك أشياء ثابتة مثل: أنا موجود، وهذا العالم موجود، والله موجود وأنّ المسيح هو شخص تاريخيّ

حقيقيّ جاء إلى عالمنا وغَيَّرَ التاريخ. هذا أمر مؤكد ولا يحتاج إلى دليل مُتَجَدِّد للإيمان به.

في الأزمات، يجب ألّا نتجاهل حقائق ثابتة، ويُفترض أن يكون موقفنا ممّا نحن نعرفه واضحًا ولا يحتاج إلى مراجعة. بالتالي، ينبغي ألّا أشكّ في كلام الله بسبب شكوكي في أمور أخرى. يجب ألّا أُشَكِّك في صلاح الله بسبب ما أجهل، أو بحكمته بسبب صعوبة فهم ما يجري.

أثناء الضيق يجب أن نتمسَّك أكثر بالأمور التي نحن متأكّدون منها. مَثَلًا، أنا متأكّد من وجود الله، وإن كان الأمر الذي أختبره صعبًا. على الرغم من كُلّ ما يحدث، الإله الحقيقي الذي نعبده هو قادر على كُلّ شيء، ولا يستطيع إلَّا أن يكون إلهًا مُحبًّا ومُهتمًّا. التشويش الناتج عن الشكّ يجب ألّا يُصيب الأساسيّات الناتجة عن الإيمان.

كتب النّبي إشعياء: «*أما عرفت؟ أم لم تسمع؟ إله الدهر الربّ خالق أطراف الأرض لا يكلّ ولا يعيا، ليس عن فهمه فحص. يُعطي المعيي قدرة، ولعديم القوّة يُكثّر شدّة*» (٤٠: ٢٨-٢٩).

هذه أشياء ثابتة ويقينيّة. إن كان الله موجودًا، فينبغي أن يكون كلّي القدرة ومليئًا بالنّعمة والحقّ. لا ينبغي الشكّ في هذه الحقائق ولا ينبغي نسيانها. قد نشكّ في عقيدة ما، أو فهم موقف نمرّ به، لكن ينبغي ألّا يقودنا هذا إلى الشكّ في الأشياء التي نحن متأكّدون منها بالفعل. عندما يُحاصَر الشكّ في مكانه الصّحيح، تكون المُعالجة أسهل.

إذن فالشَكّ أمر طبيعي ومُتوقّع من الجبلة البشريَّة، لكن مسؤوليّة الإنسان تكمن في منع انتشاره ومحاربته في مكانه المُحدَّد فقط.

البديل

بالإضافة إلى العودة إلى الأساسيَّات والتَمَسُّك بما أصبح يقينًا، السؤال التالي يفضح هدف الشكّ النهائي: ما هو البديل لما أؤمن به؟ يجب أن نكتشف باكرًا إلى ماذا وإلى أين سيقودنا هذا الشكّ؟ هذا أمر هامّ جدًّا لأنّنا عندما نكتشف البديل عن الإيمان، يتوضَّح الغرض منه.

في كثير من الأحيان يكون البديل هو أن نستسلم. نستسلم

للخطيئة، للضعف، للظلام، بعيدًا عن أي حقيقة. هل هذا ما نبحث عنه ونريده؟

المطلوب منّا أن نكشف من يقف وراء الشكّ. إذا طُلِب منّا إلقاء أنفسنا من على مبنًى عالٍ، فسنكون على يقين من أنّ المصدر شرّير. من الجيّد أن نعرف ونسأل عن مصدر الشكّ والعواطف التي تخالجنا في الأوقات الصعبة. الشيطان يعمل بشكل دائم: «*لأنّ إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسًا من يبتلعه هو. فقاوموه راسخين في الإيمان، عالمين أنّ نفس هذه الآلام تجرى على أخوتكم الذين في العالم*» (١ بطرس ٥: ٨-٩). لهذا كتب بولس في رسالته إلى أهل أفسس: «*أخيرًا يا أخوتي تقوّوا في الربّ وفي شدّة قوّته. إلبسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا ان تثبتوا ضدّ مكايد إبليس. فإنّ مصارعتنا ليست مع دم ولحم، بل مع الرؤساء، مع السلاطين، مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشرّ الروحيّة في السماويّات*» (أفسس ٦: ١٠-١٢).

عندما لا نعرف مصدر الهديّة، فإنّنا نجازف باستلام مفاجأة مُدمِّرة. الشيطان عدوّ يمتلك أسلحة فتّاكة ومؤامرات محبوكة فيجب أن نعرف أفكاره. يمكننا أن نكون انتقائيين فيما نتذكّره:

كلّما اقتربنا من الله زاد إيماننا وابتعدنا عن الشيطان. الشيطان هو إله هذا العالم وهو إله الذين يخضعون له، فكلّما زادت شكوكنا في حياتنا، خسرنا المزيد من المعارك. لهذا السبب نقرأ: «*من أجل ذلك احملوا سلاح الله الكامل*» (أفسس ٦: ١٣)، وسلاح الله ليس سلاحًا واحدًا أو سلاحَين فقط، بل كلّ أنواع الأسلحة حتّى نتمكّن من التغلّب عليه.

المساعدة التي نحتاجها

سؤال آخر هامّ في محاربة الشَكّ هو: إلى من نذهب عندما نقع في الشَكّ؟ هذا السؤال والسؤال الذي سبق مُترابطان. إذا كان إيماننا مبنيًّا على كلمة الله، ولدينا يقين من كلام الله وطبيعته من العقل ومن المنطق الذي أعطانا الله، وإن كنا نعلم أنّ لدينا أعداء معروفين بمكرهم وشرّهم وكيف يتحكّمون في هذا العالم، يجب أن نكون حذرين ومُدركين لهذا وأن نستخدم كلّ الأسلحة الروحيّة التي بحوزتنا. الربّ يسوع نفسه هو الوحيد الذي يمكنه مساعدتنا في هذه الحرب. لدينا مثال جميل في إنجيل مرقس عن رجل كان ابنه مريضًا وجاء إلى يسوع ليشفيه. لم يستطع

تلاميذه شفاء ولده. التفت إليه يسوع وقال: «*إن كنت تستطيع أن تؤمن، كلّ شيء مُستطاع للمؤمن. فللوقت صرخ أبو الولد بدموع وقال: أؤمن يا سيّد، فأعن عدم إيماني*» (مرقس ٩: ٢٣-٢٤). يريد الرجل أن يؤمن ولكنّه لم يقدر على ذلك، فطلب مساعدة يسوع. لا يوجد أحد أفضل من المسيح نفسه ليساعدنا في عدم إيماننا.

نحن نكافح كثيرًا مع شكوكنا ونحاول حلّها بطرق مختلفة. نحن نُفرط في التفكير إلى حَدّ الغَرَق أو تدمير الأشياء الثابتة في حياتنا، أو تجاهل القاعدة التي تُبنى عليها الحقيقة واليقين. لن تساعدنا هذه العمليّات العقليّة على الإطلاق. فقط عندما نذهب إلى يسوع ونطلب منه المساعدة، سنتخلّص من شكوكنا وبطريقة عقلانيَّة. هذا ما حدث مع توما الذي شُفي من شكوكه بوضع يده في جروح يسوع بعد أن ظهر له خصّيصًا.

يمكننا أن نتعامل مع شكوكنا عندما نأتي إلى يسوع لمساعدتنا كما فعل بطرس: «*فأجابه سمعان بطرس: يا ربّ، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبديّة عندك*» (يوحنا ٦: ٦٨). إذا كنّا تائهين أو محتارين بين كلمة الله وكلام الآخرين، فأين نذهب؟

يجب أن نذهب إلى كلمة الله التي تُنير قلوبنا وعقولنا ومن خلالها نرى الحقيقة كما هي. يُضيء يسوع فينا فنُرفع من الظلمة، وحينها نبدأ في فهم الأشياء وتمييزها. لا يريدنا الله أن نلتزم بكلمته بدون إنارة عقولنا للمعرفة والحكمة. يستخدم الله كلمته ليحرّرنا من العبوديّة والجهل. إذا مرضنا نذهب إلى الطبيب، واذا جِعنا نأكل، وإذا كنّا في حيرة من أمور الحياة المُعقّدة، فإنّنا نتبع كلمة الله.

بشريّتنا السّاقطة

محاربة الشكّ لا تعني أنّه سيكون لدينا إجابات على جميع الأسئلة التي تُطرح. أحيانًا، نحارب وننتصر على الشكّ بالإجابات والفهم والحكمة وبالتقرّب من المسيح، وأحيانًا نربح بالخضوع والتواضع والقبول بدون إجابات لأنّ الحقيقة تتجاوزنا ولأنّ الأمور الروحيّة والسماويّة عميقة.

لو كانت هذه الأمور بسيطة ويمكن فهمها بسهولة، لكان ذلك دليلًا على زيفها. بالكاد يمكننا أن نفهم الأمور الدنيويّة والأرضيّة، فكم بالحري القضايا الروحيّة التي تتجاوز بكثير قدرة

فهمنا البشريّ المحدود؟ لهذا، يجب أن نعلم أنّ محاربة الشكّ لا تعني أنّنا سنحصل على إجابة وطمأنينة وراحة تجاه أيّ سؤال ينشأ أو أيّ شعور يخالجنا. يُحذّر الرسول بولس المؤمنين ويكتب واحدة من العبارات اللاهوتيّة الهامّة: «*يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه. ما أبعد أحكامه عن الفحص، وطُرقه عن الاستقصاء. لأن من عرف فكر الربّ أو من صار له مشيرًا؟ أو من سبق فأعطاه فيكافأ؟ لأنّ منه وبه وله كلّ الأشياء، له المجد إلى الأبد. آمين*». (رومية ١١: ٣٣-٣٦).

إنّ الإله الذي نعرف كلّ شيء عنه هو إله صغير من صنعنا. الإله الحقيقيّ عالٍ وسامٍ وعميق ولن يعرف أحد كُلّ أبعاد أفكاره.

حتّى مع الشَكّ على الرغم من كُلّ ذلك، الشَكّ لا يغيّر هويَّة المؤمنين في المسيح. وسواء شككنا كثيرًا أو قليلًا، فإنّنا نبقى أبناء الربّ يسوع المسيح. إعترف توما بألوهيّة المسيح أمام رِفاقه قائلًا: «*ربّي وإلهي*». إعترف بذلك على الرغم من شكّه. نظلّ مؤمنين وخِرافًا للمسيح ولن نهلك، لأنّ المسيح أقوى من كلّ أعدائه، ويبقى كلّي القدرة على الرغم من ضعفنا.

حين يحلّ التعب

نقرأ في إنجيل لوقا والإصحاح الخامس قصّة لقاء بطرس بالربّ يسوع، وقد حدث هذا قبل أن يُصبح بطرس تلميذًا مُكرَّسًا. في هذه القصّة، كان بطرس يشعر بالإحباط والقلق والتعب لأنّه عاد من رحلة صيد سيّئة. كان قد نظّف شباكه للتوّ، وكان على وشك العودة إلى المنزل عندما جاء يسوع وطلب منه استخدام قاربه لتعليم الجموع بعيدًا عن الشاطئ. وافق بطرس على ذلك، وعندما صعدوا إلى القارب بعد أن انتهى يسوع من تعليمه، طلب منه مرّة أخرى أن يُبحر إلى العُمق ويرمي شباكه. لكن بطرس قال ليسوع إنّه عمل هو وأصدقاؤه طوال الليل ولم يصطادوا سمكة واحدة. أيّ صياد عندما يعود إلى الشاطئ خالي الوفاض بحلول هذا الوقت يمكن أن يتعرّض للفشل والإحباط. ربّما احتاج بطرس إلى الكثير من الراحة، وجاءَ طلب يسوع في ذروة تعبه وفشله وإحباطه. إلى جانب استخدام قاربه كمنصّة للتعليم، طلب يسوع كذلك من بطرس أمرًا أكثر إرهاقًا، وهو الذهاب الى

العمق ورمي شباك الصيد مرّة أخرى.

بغضّ النظر عن مدى إيماننا، تجعلنا كمّية المشاكل وتسلسل الأحداث مُتعبين للغاية، وأحيانًا مُحبطين ومهزومين وخائفين. هذا أمر طبيعيّ لأنّنا نعيش في عالم ساقط وملعون والله يعرف جبلتنا. ومع ذلك، يمكننا الاستفادة من كلمة الله وتعامل يسوع مع الآخرين حتى نتعلَّم ما يجب أن نفعله عندما يحلّ التعب.

على الرغم من أنّنا قد نتغلّب في بعض الأحيان على تجربة كبيرة بسهولة، إلّا أنّ تجربة صغيرة يمكن أن تُحَطّمنا.

المظاهر خادعة

عندما يبدأ التعب، يظهر يسوع وكأنَّه غير مُهتمّ. بشكل عامّ، يظهر يسوع عادةً هكذا. إنّ التقييم السريع للموقف يجعلنا نشعر بأنّ يسوع لا يهتمّ بتعب بطرس أو إحباطه. أين كان عندما كان بطرس يصطاد طوال الليل؟ وعندما جاء إلى بطرس عندما انتهى من تنظيف شباكه، لم يسأله يسوع سؤالًا واحدًا عن مخاوفه. لم يسأله كيف سيُطعم أطفاله. لم يقل يسوع شيئًا! لكنّه بكلّ هدوء

ولطف، اختار قارب بطرس من بين القوارب الأخرى. بالطبع عَلِمَ يسوع بتعب بطرس، لكنّه أراد تعليم الجموع باستخدام قاربه. جلس يسوع وعلّم وربّما بقي وقتًا طويلًا وهو يعلّم. يمكننا أن نتخيّل مشاعر بطرس ظانًا بأنّ يسوع لا يهتمّ بتعبه أو إحباطه.

علاوة على ذلك، أحيانًا نرى يسوع يأتي متأخّرًا، كما لو أنّه ليس في عجلة حتى يشفينا من تعبنا وألمنا. هذا ما حدث أثناء مرض لعازر وموته. تأخّر يسوع عن الذهاب، وحين وصل كان لعازر قد مات. نراه مع المرأة الكنعانيّة يتظاهر بأنّه يتجاهلها كما لو أنّه غير مهتمّ. يبدو كما لو أنّه غير مبال بها. في مناسبة أخرى عندما نام على متن السفينة وكانت على وشك الغرق، بدا أيضًا وكأنّه غير مهتمّ.

بسبب سيادته وقوّته وحكمه الكامل على كلّ شيء، ليس يسوع في عجلة من أمره للردّ على مشاكلنا. بصفته سيّدًا على كلّ شيء، لا نجد يسوع مُرتبكًا أو خائفًا من التأخير. لكنّه اختار بطرس وطلب منه هذا الطلب الصعب لأسباب خاصّة.

عندما نتعب، يجب أن نتذكّر أنّنا نظنّ أنّ يسوع غير مبالٍ،

لكنّه في الواقع يهتمّ بنا كثيرًا، حتّى لو لم تظهر عليه علامات الاهتمام. ألم يأتِ إلى بطرس بالتحديد؟ ألم يكن بإمكانه تعليم الحشد في مكان مختلف؟ ألم يكن بإمكانه أن يترك بطرس يستريح ويُعَلّم لاحقًا؟ بالطبع كان يقدر أن يفعل هذا، لكنّ الربّ أراد أن يتعامل مع بطرس المكسور والجريح. لقد جاء إليه بشكل خاصّ واختار قاربه في اليوم الذي كان فيه متعبًا جدًّا. قبل هذه الحادثة بقليل، يذكر لوقا أنّه عندما دخل يسوع الهيكل، قال إنّه قد جاء تتميمًا للنبوءة: «*لأبشّر المساكين. أرسلني لأشفي المنكسري القلوب. لأنادي للمأسورين بالإطلاق وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحريّة*» (٤: ١٨).

نحن أولويّة بالنّسبة إلى الله. لقد جاء ومات وقام من أجلنا، هو يهتمّ بنا وبكلّ دمعة في عيوننا.

الراحة في كلمة الله

شيء آخر نتعلّمه من هذه الحادثة هو أنّه لا يوجد شيء أفضل من الاستماع إلى كلمة الله عندما نتعب. في بعض الأحيان، نبغي الراحة، فتأتي التجربة وتقترح لنا أن نرتاح حتى من الاستماع إلى

الوعظ أو التأمّلات الروحيّة أو القراءة من الكتاب المقدّس.

يُعلن يسوع أنّه لا يوجد شيء أفضل من كلمة الربّ عندما نتعب. لهذا السّبب بالذات أتى وبدأ عملية شفاء بطرس. وقبل أن يسأله أيّ شيء عن الأمور التي تزعجه، جلس في قاربه وبشّر وعلّم الناس. بالتأكيد، من خلال النوايا الإلهية الخفيّة، أراد يسوع من تعاليمه أن يَشفيَ بطرس من آلامه وخوفه وإحباطه. عَمِلت كلمة الله في بطرس لأنّه كان من الممكن أن يرفض طلب يسوع لأنّه لم يكن متعبًا فحسب، ولكن أيضًا كصيّاد كان يعلم أنّه لم يعد هناك شيء للصيد في ذلك اليوم. لكنّه ذهب وقال ليسوع «*على كلمتك ألقي* شبكتي». لم يكن بطرس يعلم إلى أين يتّجه، لكنه أطاع يسوع وذهب. عندما نتعب، تشفينا كلمة الحياة وتُنشّطنا. في الواقع، عندما نتعب، هذا هو الوقت الذي نحتاج فيه للاستماع إلى كلمة الله أكثر من أيّ وقت آخر. هل نرى كيف يعمل الدواء في أجسادنا، أو كيف تُدفئنا الشمس؟ هل نعرف حقًا تقنيَّة عمل كلمة الله في حياتنا؟ أبدًا. ولكن عندما نستمع الى كلمة الله فإنّها تعمل فينا، وتفتح قلوبنا وعقولنا من دون أن ندرك ذلك. الشّجرة العطشى ترحّب بالماء سواء أدركت ذلك أم لا.

الراحة في شركتنا

رأينا حتّى الآن أنّه عندما يحلّ التعب، لا ينبغي أن نعتقد أنّ الله لا يهتمّ بنا حتّى لو بدا لنا ذلك. عندما نتعب، يجب أن نتأكّد من أنّ أفضل شيء نقوم به هو الاستماع إلى كلمة الله، لأنّها لا تتعامل فقط مع النتائج أو العواقب في حياتنا، ولكن أيضًا مع الأسباب العميقة الداخليّة؛ إنّها تزيل الظلام وتفتح أعيننا وتجعلنا نفهم حقيقة الأشياء وحقيقة هويّتنا الحقيقيّة.

عندما نكون في شركة حقيقية مع الربّ، هل نقبل بالإجابة سواء كانت نعم أو لا؟ كيف نُصَنّف علاقتنا بإله يردّ بنعم أو لا؟ في الواقع، لا يوجد علاقة على الإطلاق عند بعض الناس مع الله، ومع ذلك يريدون أن يقدّمَ لهم إجابات قصيرة جدًّا: نعم أو لا أو لاحقًا، في الوقت الذي عند الله أمور كثيرة ليقولها لهم. عندما تكون لدينا شركة مع الله، فإنَّ العظات والصلوات وطلب الأمور المستعصية والمعقّدة والصعبة تحتاج إلى الكثير من الكلام والأخذ والردّ. لم يكن هذا اللِّقاء الأوّل لبطرس مع المسيح، لأنّه كان معه من قبل في عدّة مراحل وما زال بحاجة إلى الاستماع أكثر والتفكير والسؤال والتعرّف على الربّ بشكل أفضل. يجب

ألّا نغضب إذا قال الله لنا: ليس الآن ولكن فيما بعد، لأنّ هناك حاجة لمناقشة وشرح المزيد. دعونا لا نغضب لأنّ الله هو حيّ وليس كيانًا آليًّا يُجيب بإجابات مُختصرة مُحدَّدة. يأخذ الله وقته للردّ علينا لأنّه يُعطي فرصة للفهم والاستيعاب. من لديه شركة حقيقيّة مع الله، عليه أن يُتقن فنّ الإصغاء.

يقدّم لنا المزمور ٨٩ على سبيل المثال، توضيحًا لكيفيّة تعلّمنا الكثير من الأشياء الهامّة عندما نستمع إلى كلمة الله في وقت التعب. الأمر الأوّل هو أنّ الله قطع عهدًا مع شعبه. يقول: «*قطعت عهدًا مع مختاري. حلفت لداود عبدي*» (٣). لدى الله مِثلُ هذا العهد مع كلّ واحد منّا. ويذكّرنا أنّه سيّد على كلّ الأشياء: «*يا ربّ إله الجنود، من مثلك قويّ، ربٌّ وحقُّك من حولك*». (٨) يسرد هذا المزمور صفات الله وخصائصه وقدراته لكي نثق بالإله خالقنا. إذا كان هو سيّد كُلّ ما يحدث في حياتنا، فيجب ألّا نخاف: «*العدل والحقّ قاعدة كرسيّك. الرحمة والأمانة تتقدّمان أمام وجهك*» (١٤). إنّه إله عادل ولن يقاضينا إلّا على أساس عمله الفدائي.

مَنْ أو ما الذي يجعلنا نفهم هذه الحقائق الصعبة والمعقّدة في

وقت لا تُظهر لنا فيه الحياة أنّ الله مَيَّزنا؟ من يستطيع أن يشرح لماذا عندما نختبر الصعوبات لا تُظهِر لنا الحياة أنّ الله يتحكّم في كلّ شيء، ونرى الشرّ يعمل، ويسود الاضطهاد؟ فقط كلمة الله وتعاليمها يمكنها أن تفعل ذلك لأنّها تكشف الأكاذيب وتزيل كلّ سوء فهم. كلّ الفلسفات البشريّة لا تروي عطش المعرفة لأنّها بعيدة عن الحقيقة، بينما كلمة الله تؤكّد الحقائق التي نحتاجها. طوبى للذين يعرفون من هم بالنسبة إلى الله وما هي علاقتهم به: «*طوبى للشعب العارفين الهتاف. يا ربّ بنور وجهك يسلكون*» (١٥). يتحدّث هنا عن نور الحقّ، ونور الإنجيل، ونور الفهم الصحيح، ونور المعرفة والحكمة. صفات الله الكاملة، عظمته وجماله وجبروته تحفظ المؤمنين في زمن التعب. لا شيء يطرد الضياع إلّا الحقيقة. الفراغ والكسل والخمول ليس وقت راحة بل خراب. لا يوجد قلب فارغ، فهو إمَّا يلهج بالحقّ أو بالكذب لأنّ القلب هو مصنع للأصنام التي تخدع. الحلّ هو الاستمرار والثبات على الاستماع إلى كلمة الله عندما يبدأ التعب.

الراحة في الطاعة

عرف بطرس أنّه بحاجة إلى الاستماع والبقاء مع الناس. كان بإمكانه أن يطلب من يسوع أن يسمح له بالعودة إلى المنزل بعد أن ينتهي من التعليم. كان بطرس متعبًا ولم يكن بحاجة إلى الانتظار حتّى ينتهي يسوع من تعليم الجموع. لكنّه بقي واستمع وأطاع. عندما أطاع بطرس ومن معه وخرجوا إلى العمق ورموا الشبكة كما قال يسوع، كانت شباكهم مليئة بالأسماك. كافأ يسوعُ بطرسَ ومن معه على طاعتهم. نُخطئ كثيرًا حين نعتقد أنّ الراحة تأتي قبل الطاعة وليس بعدها. خطأ أكبر أن نشترط الراحة للطاعة. يقول الربّ: «*تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. إحملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي لأنّي وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم*» (متى ١١: ٢٨، ٢٩).

هذه هي حالة نوح أيضًا. قام ببناء الفُلك قبل أن يبدأ أي مطر على الإطلاق. مثل بطرس، أطاع الله وبنى الفلك وانتظر. وهذا أيضًا ما حدث مع إبراهيم عندما دعاه الله وأخبره عن الأرض والبركات. ترك بيت أبيه وأرضه وخرج ليعيش في خيام. لو انتظر ليرى البركات أوّلًا لما اختبر الراحة أخيرًا. أطاع ولم ينتظر حتى

يرى بعينيه. مرّة أخرى، هذا ما حدث مع موسى عندما استمرّ فرعون في رفض خروج الشعب وكرَّر التراجع عن وعوده. لم يُظهر الله نصرًا مُسبقًا لموسى؛ بل أظهر له ما هو أهمّ من ذلك، ألا وهو وجوده معه. أعطاه إشارات وتأكيدات بأنّه سيكون معه. لم يُطلعه الله على تفاصيل خطّته. لم يُخبره كيف سيشقّ البحر، ولا كيف سيُنزل المنّ من السماء أو كيف سيُخرج الماء من الصخرة. لم يُظهر له أيّ شيء من ذلك. لقد أخبره فقط أنّه معه وعندما يطيعه، سيشاهد بركات الربّ ويتعزّى.

الطاعة تجلب الراحة لأنّنا عندها سنعرف معنى وهدف التعب والألم. عندما أطاع بطرس واصطاد السمك، وبسبب البركات الأخرى التي حصل عليها نسي نعمة الصيد الكبير. الأمر الأوّل الذي اكتشفه هو إثمه إذ قال: «*اخرج من سفينتي يا ربّ لأنّي رجل خاطئ* « (لوقا ٥: ٨). بدلًا من أن يكون سعيدًا لأنّ يسوع فكّر به حقًا وقدّم له ولأسرته الطعام، وبدلًا من أن يشكره على السمك، تعلّم بطرس أكثر بكثير. لقد تعلّم مَنْ هو يسوع ومن هو بالنسبة إلى يسوع. كان يعلم أنّ الله هو الذي يتحكّم بالبحر وما فيه من سمك. والآن أصبح يعرف أنّ القدّوس نفسه، الكائن

الحيّ، موجود على قاربه. عندها طلب من الربّ أن يخرج من سفينته لأنّه رأى نفسه غير مستحقّ. فأجابه يسوع: «*لا تخف. من الآن تكون تصطاد الناس*» (١٠). انتهى المطاف ببطرس تابعًا حقيقيًّا للمسيح وأصبحت هذه الحادثة منعطفًا رئيسيًا في حياة بطرس: «*ولمّا جاؤوا بالسفينتَين الى البرّ، تركوا كلّ شيء وتبعوه*» (١١).

الراحة في الصليب

عندما يبدأ التعب، تجد الراحة في الصليب. لم يرَ بطرس ما حدث مع يسوع إلّا في وقت لاحق: فقد رأى مقدار عمل يسوع معه؛ لقد رأى مدى ضآلة تعبه الشَخصيّ مقارنة بما أعدّه الربّ له في السابق؛ لقد رأى القليل من التعب في ضوء خطّة الله الأبديّة. أَظْهَرَ كلّ هذا لبطرس، أن تعبَه كان بلا قيمة.

عندما يحلّ التعب، يكشف الصليب محبَّة الله. يقول الرسول بولس: «*لأنّ خفّة ضيقتنا الوقتيّة تُنشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديًّا*» (٢ كورنثوس ٤: ١٧). عاد وشهد بطرس لهذه المحبَّة ولآلام الصليب وأدرك أنَّ على طريق الجلجثة اختبر يسوع التعب

والوجع، ليس من الناحية الجسديّة فحسب، بل لأنّه حمل خطايا كثيرين ولأنّه أحبّ خاصّته إلى المُنتهى.

يكتب الرسول بولس إلى أهل فيلبي قائلًا: «لأنّه *قد* وُهب لكم *لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط، بل أيضًا أن تتألّموا لأجله*» (١: ٢٩). لم يمنحنا الله موهبة الإيمان فقط، بل امتياز الشركة معه. هذه نعمة وفرصة عظيمة للمشاركة في الحرب الروحيّة. إمتياز عظيم أن يتألّم أحد لأجل المسيح.

لا خوف من التعب، لأنّه عندما يسمح الربّ به، ستتطهَّر قلوبنا وتتوسَّع عيونُنا ويكبر كنزُنا. محبّة الربّ الصّادقة والواضحة هي البلسم لكلّ الجراح وسرّ قوّة الاستمرار. عندما تكون أتعابنا وآلامنا جزءًا من مشروع الربّ، لن نتقبَّلها فحسب، بل سنفخر بها كما فعل الرسول بولس حين قال: «*لأنّي حامل في جسدي سمات الربّ يسوع*». (غلاطية ٦: ١٧).

حين لا نجد أجوبة

عندما تنهار الأعمدة، تتطلّب العديد من الأسئلة بعض الإجابات. كان البحث عن إجابات في الأوقات الصّعبة هو السّعي الأبدي للإنسان في الماضي والحاضر. في إنجيل يوحنا والاصحاح التاسع، شفى يسوع رجلًا وُلد أعمى، وسأل التلاميذ عمّا إذا كان العمى ناتجًا عن خطيئة ارتكبها الرجل أم والداه. كان هذان الخياران الوحيدين اللذين ظنّوا أنّ عليهم الاختيار بينهما. ولكن، إذا كان العمى بسبب خطيئة الإنسان، فسيكون ذلك غير منطقيّ، لأنّ جميع الناس يولدون بالخطيئة، وبالتالي، فإنّ الإنسان لا يستحقّ مثل هذه العقوبة. وبالمثل، من غير المنطقي معاقبة الابن على خطيئة ارتكبها والداه. في الحقيقة، الاقتراحان غير صَحيحَين.

نحن أيضًا مثل التلاميذ، نفتقر إلى الإجابات في حياتنا عندما نواجه تجارب مؤلمة. وبينما نحاول البحث عن أسباب الصعوبات

بوضع خيارات أمام الله، قد نفقد المفتاح الأساسيّ في حلّ هذه الألغاز.

فيما يتعلّق بهذه الحالة، أجاب يسوع: «*لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه*» (يوحنا ٩: ٣). إنّها إجابة غير مُتوقَّعة. بالنسبة إلى يسوع، ليست المسألة العثور على من أخطأ بل هي أبعد من ذلك بكثير.

مُعجزة غريبة

أخذت هذه المعجزة حيّزًا كبيرًا من الاصحاح التاسع، لذا نجد فيها دروسًا كثيرة ومتنوّعة. ما حدث بعد النقاش هو أنّ يسوع التقط القليل من التراب وبصق عليه وفركه في عينَيْ الرجل. لم يجري أي حديث بين الأعمى ويسوع بل قال له يسوع ببساطة أن يذهب ويغتسل. عندما فعل ذلك، رَجعَ نَظَرُهُ إليه. إندهش الناس الحاضرون وبدأوا يتساءلون كيف وبأيّ سلطان فعل يسوع هذا. حتى أنّهم أحضروا والدَيه اللذين نَفَيَا أي مسؤوليّة فيما حدث، وحصل ارتباك كبير. غضب الفرّيسيّون وطلبوا من الرجل الأعمى أن يفسّر لهم ماذا حدث لأنّهم خافوا من عواقب هذه

المعجزة، وغضبوا أيضًا لأنّ يسوع صنعها يوم السبت. غادر الأعمى، الذي من الواضح أنّه ليس مؤمنًا وليس لديه أدنى فكرة عمّا يجري، بدون أن يعرف ما حدث له ولماذا يُتّهم الشخص الذي شفاه بأنّه مذنب كما اقترحوا عليه. لكن يسوع رجع إليه وقابَلَهُ وسأَلَهُ: «*أتؤمن بابن الله؟*» (٣٥). أجاب الرجل: «*من هو يا سيّد لأؤمن به؟*» لم يفهم ما كان يحدث، لا عندما كان أعمى ولا الآن بعد أن أصبح يرى. ثم قال له يسوع: «*قد رأيته، والذي يتكلّم معك هو هو*» (٣٧).

إنّها بالفعل معجزة غريبة جدًّا. عادة ما نجد طلبًا ثمّ استجابة له. فكيف يمكن أن تحدث معجزة مثل هذه لمن لا يعرف أو يؤمن بالمسيح فيُشفى؟ هذه المعجزة تساعدنا على تبنّي حقيقة صعبة في الحياة وهي واقع محدوديَّة قدرتنا على الفهم. نادرًا ما نستطيع أن نفهم بدقّة الأسباب المباشرة لنكباتنا وأمراضنا وآلامنا. هذه المعجزة تساعدنا على فهم أبعادها وما يقف خلف ما هو ظاهر. ما حدث مع الأعمى فريد: ولد أعمى بدون ذنب إرتكبه هو أو والداه، ومع ذلك شفاه الله. لقد اختبر هذا الرجل مُتأخّرًا عمل الله فيه.

قضى هذا الرجل مُعظم حياته وهو لا يعرف سبب ولادته أعمى. كم مرّة نظنّ أنّه سأل الربّ: لماذا وُلدت أعمى؟ كم مرّة دعا الله وبكى وصرخ طالبًا الرحمة والشفاء، أو على الأقل أن يعرف سبب عماه؟ كم مرّة اعترض وتذمَّر وغضب من الله؟ لا أحد يستطيع أن يُقلّل من مرارة وحزن هذا الرجل.

في وسط هذه المأساة جاء يسوع ونظر إليه وشفاه. إنّ حزنه الطويل والشديد قد يكون هو الذي جعله لا يطلب. هذا لم يَرَدَع الله عن تتميم مشيئته وإكمال عمله، فتمجَّد في خلاص هذا المسكين.

معاملات الله الغامضة

غالبًا ما نشعر بأنّنا مُتضايقون لأنّنا لا نفهم ما يجري في حياتنا. قال الرسول بطرس للربّ: «*يا سيّد، أنت تغسل رجليّ؟ أجاب يسوع وقال له: لست تعلم أنت الآن ما أنا أصنع، ولكنّك ستفهم فيما بعد*» (يوحنا ١٣: ٧-٨) سوف نفهم متأخّرين كالأعمى، لكن يجب أن نتوقّع عمل الله لنُدرك نتيجة عمله هذا في داخلنا. نشعر بالقلق عندما نصلّي لوقت طويل ونتساءل

كيف يسمح الله بذلك؟ عندما لا نحصل على إجابات، يجب ألّا ننتظر الإجابات فقط، بل علينا أن نتوقّع أمرًا أكثر أهميَّة: تعاملات الله في حياتنا، فهي أكثر أهميَّة. الإجابة لا يمكن أن تشرح بالتفصيل كُلّ أبعاد وأعماق عمل الله. سوف يتعامل الله معنا ويترك لنا أن نستنتج كلّ الإجابات. المعرفة الصحيحة تَنْبَع من الاختبارات وتظهر بهدوء ومع الوقت.

الشيء الآخر الذي أدركه الأعمى هو وجهات النظر أو الأبعاد المتعدّدة لعمل الله. عادة ما نحلِّل أمرًا من عدد محدود من الزوايا. ولكن عندما يفعل الربّ أمرًا ما، فسيكون له ملايين الأبعاد، وهذا سيؤثّر على الزمن، علينا وعلى من حولنا، وحتّى على الذين جاؤوا قبلنا والذين سيأتون بعدنا. عمل الله وكلمته في مكان وزمان مُحدَّدَين يَصلان ويؤثّران في ملايين الناس عبر الزمن. ما فعله يسوع بهذا الرجل له أثَر يمتدّ إلى الآن. وبالتالي، من الخطأ أن نقرأ معاملات الله معنا ببساطة عبر محاولة استخلاص معنى أو سبب واحد لحادث ما.

أدرك هذا الأعمى لاحقًا أنّ ما صنعه الله في حياته لا يتعلق بخطيَّة ما أو هدف ما. لقد أدرك أنّه يجب عليه ألّا ينظر في

الأمور بسرعة، بل هناك شيء أهمّ بكثير من نور العينين. حدث أمر حاسم في حياته، فما حدث ليس مجرّد تغيير خارجيّ، إنّما داخليّ. بعد لقاء يسوع لم يَعُد أعمى، بينما كُثُر هم الذين قال عنهم الربّ إنّهم عميان قادة عميان.

باختصار، بركات لقاء يسوع كانت أعظم بكثير من مأساة السنين الطويلة. لا تُقاس الأمور في مُدَّتها بل في جوهرها ومعانيها ونتائجها.

الشفاء الروحي

بالطبع يمكن أن يشفي الله متى يشاء واستجابة لصلاة ما. يمكن أن يشفي الله متى شاء، لكنّه يريد أيضًا أن يشفينا من مرض الخطيئة الذي هو أخطر بكثير من الأمراض الجسديّة. يريد أن يحلّ مشكلة الجهل لا أن يقدّم دائمًا شفاء لكلّ مرض. أحيانًا، عندما يسأل الطفل سؤالًا مملًّا جدًّا، فإنّنا نهتمّ بتحريره من مثل هذه الأسئلة أكثر من اهتمامنا بإعطائه إجابة عن سؤاله. يريد الله أن يلتقي بالإنسان وينير قلبه المُظلم. إنّه نور الحقيقة الذي يُعطى للتمييز. عندما انتهت القصّة وركع الرجل أمام يسوع

بعد أن عرف من هو يسوع، قال له يسوع: «*لدينونة أتيت أنا الى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يُبصرون ويعمى الذين يُبصرون*» (يوحنا ٩: ٣٩). وهذا يؤكّد أنّه يتحدّث أوّلًا عن بُعدٍ روحيّ. سأله الفرّيسيون الذين لاحقوه وسمعوه: ألعلّنا نحن أيضًا عُميان. قال لهم يسوع: لو كنتم عميانَ لما كانت لكم خطيّة، ولكن الآن تقولون إنّنا نبصر فخطيّتكم باقية» (٤٠ و٤١). إذًا، المشكلة هنا روحيّة: كيف نرى أنفسنا؟ ما هو رأينا في أنفسنا؟ هذا ما يريد الله تغييره فينا. أراد الله أن يشفي العمى الروحي للإنسان حتى تظهر أعماله فيه. هل ننظر إلى الأشياء التي تحدث لنا لنرى ماذا سيفعل الله بها، أم ننظر إليها لنعرف ماذا سيفعل الله فينا بسببها؟

هبة أفضل

من المُمكن الفهم ولكن يجب أن نتحلّى بالصبر كما أُخبر بطرس أنّه سيفهم لاحقًا. لقد فهم الإنسان الأعمى ذات يوم أبعاد وأعماق تعاملات الله معه. بالتأكيد، لن نفهم إذا سارعنا إلى استنتاج الأسباب، لأنّ ما يحدث لنا له تأثيرات مختلفة علينا وعلى عائلاتنا وأصدقائنا. لا يمكن لأحد أن يُحدّد معنى واحد

لعمل الله في التاريخ ويضع له توقيتًا محدّدًا. نقرأ في رسالة رومية ٥: ١٢: «*من أجل ذلك، كأنّما بإنسان واحد دخلت الخطيّة الى العالم وبالخطيّة الموت، وهكذا اجتاز الموت الى جميع الناس إذ أخطأ الجميع*». يحذّرنا الرسول من أن نقف عند الخوف من الموت وما قد ينجم عنه ونتغافل عن سببه. هناك شيء أهمّ نحتاج إلى حلّه. دخلت الخطيئة العالم وجلبت الموت، وهكذا جاء الموت للجميع. في الواقع، الخطيئة هي السّبب الأوّل لسقوطنا، والجميع أخطأوا والموت مُحتّم على الجميع. لكن الآية تنصّ على ما يريد الربّ أن يعطينا إيّاه: «*ولكن ليس كالخطية هكذا أيضًا الهبة، لأنّه إن كان بخطيّة الواحد مات الكثيرون، فبالأولى كثيرًا نعمة الله. والعطيّة بالنعمة التي بالإنسان الواحد يسوع المسيح قد ازدادت للكثيرين*» (١٥). لا يقدر أحد أن يختار ألّا يموت لأنّنا جميعًا سقطنا في الخطيئة. لكن هبة الربّ لا مثيل لها. الأهمّ هو معرفة يسوع. إذا رأى هذا الرجل العالم بأسره كما يستطيع ملايين البشر، وإذا قرأ جميع الكتب وتمتّع بجمال الطبيعة والكون ولكنّه لم يقدر أن يرى يسوع، فسيبدو الأمر كما لو أنّه لم يرَ شيئًا. لكن من رأى يسوع ولم يرَ

شيئًا آخر في هذا العالم، سيكون قد رأى كلّ شيء. يريدنا الله أن نعرفه معرفة شخصيّة.

يستمرّ بولس الرسول في شرحه في رسالة رومية قائلًا: «لأنّه *كما بمعصية الإنسان الواحد جعل الكثيرون خطاة، هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبرارًا*» (١٩). لا شيء أوضح من هذا: الخلاص هو عمل الله وقد تمّ عندما أطاع يسوع وذهب إلى الصليب ومات وقام؛ إنّه البارّ الذي حمل خطايا شعبه حتى يصبحوا أبرارًا. الأعمى لم يفتح فمه ولم يطرح الأسئلة ولم يبحث عن أجوبة. أجمل ما في هذا العالم هو أن نتعرّف على إلهنا كمخلّص ونقبل هبته المجّانية.

من المستبعد أن نحصل على هديّة ولا نسأل عمّن قدّمها إلينا. قبل أن نسأل لماذا حصلنا عليها، نحتاج إلى معرفة من أرسلها. والله يعلم ذلك وهو على استعداد دائم لتقديم نفسه إلينا. لقد فهم الأعمى متأخّرًا أنّ أجمل ما حدث في حياته هو لقاؤه بيسوع. لقد رآه أوّلًا كشخص شفاه وفتح عينَيه وحرّره من عجزه عن الفهم والعيش في النور، ومن عدم قدرته على اكتشاف الحقيقة. قدّم الله نفسه إليه حتى تَتَكَشَّف أعمال الله فيه.

هذا التدخّل مع الأعمى كان بسيطًا للغاية. ما أراده الله هو تحرير هذا الرجل من الجهل والخطيئة والعبوديّة ومن مصيره المظلم. لقد وُلد في الخطيئة وكان مُمكن أن يترك العالم في الخطيئة من دون أن يتمكّن من فعل أيّ شيء. لكنّ الله أراد أن يقدّم نفسه له ويخلّصه. لذلك، عندما نكون في وسط الظلمة والألم والمعاناة والصلوات التي لا إجابات لها، يجب أن نبحث عن شخص الربّ، وليس عن الإجابات.

الأمور الأبديّة

لقد أدرك الرجل الأعمى تعاملات الله معه في وقت متأخّر. لقد فهم أعماق وأبعاد عمل الله في حياته؛ وأخيرًا، فهم أنّ عمل الله داخليّ وأنه أكثر أهميَّة من العمل الخارجيّ. من الأهميَّة بمكان أن يغيّر الله حياتنا أكثر من تغييره لظروفنا. نحن الأكثر قيمة بالنسبة إليه. لن ترافقنا الظروف الى السماء الجديدة والأرض الجديدة، فلماذا إضاعة الوقت في أشياء عابرة ستضمحلّ.

ليست هناك حاجة للبحث عن مفتاح الضوء في غرفة مظلمة؛ بل يجب أن نبحث عن الله لأنّه سيقودنا إليه. في الظلام،

البحث عن يسوع هو الحاجة الأولى. ما الذي يُمجِّد الله في وسط التجربة؟

حتى الإيمان القويّ قد يقع في فخّ التوقّعات البعيدة عن مشيئة الله. الصلاة تُغيّر هذه التوقّعات، وتُصحِّح أي أفكار ناتجة عن رغبة أو حاجة وليس عن بصيرة روحيَّة. الإيمان الكتابيّ في جوهره هو تواضع واستسلام وطاعة لمشيئة الله، وليس شعورًا بالاستحقاق ومحاولات الإملاء على الله.

ماذا لو

يقدّم لنا الله اقتراحًا لطيفًا، في وقت الاضطرابات التي لا نفهمها، بأن نراعي فكرة «ماذا لو». سيناريو «ماذا لو» كان هناك شيء عظيم مُخبّأ لنا في مخازن الله؟ ماذا لو فعل الله شيئًا رائعًا في حياتنا أو في حياة من نحبّ أثناء الضيق والألم؟

على الرغم من أنّه ليس من السهل الإيمان بهذا والعيش وفقًا لذلك، فإنّ الأمر يستحقّ التفكير في «ماذا لو» حتى لو كان هذا مجرّد احتمال. أليس من الممكن أن نكون مثل هذا الرجل

المولود أعمى الذي قضى حياته كلّها لا يفهم لكنّه فهم بعد ذلك؟ على المؤمن الاستمرار في قول «ماذا لو» والسماح للربّ بأن يقوم بعمله. بدلًا من التذمّر، الثقة في عظمة الله وحكمته وقدرته على تحويل الأمور إلى الأفضل هي الصّواب. طاعتنا وقبولنا وتغييره لنا يمجّد اسمه. ماذا لو كان لدى الله خطة أخرى غير التي نطلبها؟ ستكون خطّة أجمل بكثير من خطّتنا. حدث هذا مع الرسول بولس، أعظم التلاميذ وأكثرهم اجتهادًا، عندما أصيب بشوكة في جسده. بكى وصلّى من أجل أن يزيل الله هذه الشوكة، ولكن «ماذا لو» كانت هذه الشوكة تهدف إلى اختبار القوّة في الضعف. وماذا لو سمح الله فيها لتعلن قوّته بشكل أفضل؟ ماذا لو أراد الله أن يزيلها لاحقًا بطريقة مُعجزيّة؟

مات يوحنا المعمدان في ريعان شبابه. لكنه كان كما وصفه المسيح «*أعظم مَن ولدِ من النساء*» لأنّه أتيحت له الفرصة لخدمة وتمجيد الله في حياته. صوت صارخ في البريَّة يصل إلى الأبديَّة، أجمل من أصوات الغناء والطرب التي لن تصل حتى إلى القبر.

حين يأتي السيّد

ما الذي يمكن أن يكون نهايةً أفضل لانهيار أعمدتنا سوى أن نرحّب بربّنا وسيّدنا في وسطها. يصف لوقا في الاصحاح الرابع والعشرين كيف ظهر يسوع بعد قيامته لاثنين من تلاميذه في طريقهما إلى عمواس. في البداية لم يعرفاه رغم أنّهما كانا من تلاميذه. كان قد علّمهما وكسرَ الخبز معهما مرّات عديدة من قبل. إنفتحت أعينهما بعد ذلك ثمّ عادا إلى أورشليم ليُخبرا التلاميذ الآخرين. لقد اقترب منهما في وقت مليء بالحزن والأسى، وشرح لهما عن نفسه بشكل غير متوقّع. لدينا في هذه الحادثة أحد أفضل الأماكن التي يشرح فيها يسوع عن نفسه. يشرح الرب يسوع هنا عن عذاب يسوع.

ذات مرّة عندما مرض لعازر، صديق يسوع الحبيب، ثمّ مات، ذهب يسوع إلى عائلته. سارعت مرثا إلى مريم قائلة لها: «*المعلّم قد حضر وهو يدعوك*» (يوحنا ١١: ٢٨). سارعت مريم إليه،

لأنّه ما الذي يمكن أن يطلبه تلميذ المسيح أكثر من أن يأتي المعلّم نفسه إليه. لم يفهم التلميذان وهما في طريقهما إلى عمواس بسرعة على الربّ، وعندما يمرّ المؤمنون بصعوبات في هذا العالم، يكون يسوع أقرب إليهم ممّا نعتقد.

الحضور المَهيب

على الرغم من كلّ ما اختبراه هذان التلميذان مع يسوع من قبل، إلّا أنّهما لم يتعرّفا إليه. شرح لهما الكتب، مشيرًا إلى شخصه وإلى فدائه فأضرم النار في قلبيهما. هذا بالضبط ما يحدث لنا بعد أن نُدرك حضوره معنا، وإلّا فلا معنى لاجتماعات العبادة. تفرح قلوب المؤمنين وتتعزّى عندما تكون في شركة معه وتختبر عن حقّ حضوره كما وعد: «*وها أنا معكم كلّ الأيّام حتّى انقضاء الدَّهر*».

هذه الحادثة تشبه إلى حدّ بعيد ما يحتاجه كلّ إنسان في حياته عندما تنهار الأعمدة: يحتاج إلى حضور الربّ. قالت مرثا لمريم: «*المعلّم قد حضر وهو يدعوك*». هذه الكلمات هي أفضل ما نتوقّع سماعه في وسط الألم. الله يناديا ولديه أشياء ليقولها

لنا. كان التلميذان حزينَين وعابسَين لأنّه بينما كان معهما قبل الصّليب، كانا ينتظران منه الانتصار والخلاص. لكنهما شاهداه وهو يتألّم ويعاني على الصليب، ثم شاهداه يموت. على الرغم من أنّ البعض قالوا إنّه قام، لكنّهما لم يكونا متأكّدَيْن لأنّهما لم يختبرا يسوع الناصري حيًّا. لقد سارا معه وتبعاه وعلّمَهُمَا، وها هما يفتقدانه مرتبكَين وغاضبَين.

النظرة الصّحيحة إلى الكتاب المقدّس

الأمر الأوّل الذي واجههما فيه المسيح هو حاجتهما إلى التَنبّه لكلّ ما هو مكتوب في الكتب: «*أيّها الغبيّان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلّم به الأنبياء*» (لوقا ٢٤: ٢٥). كان بإمكانه أن يأسر قلبيهما بإخبارهما أنّه يسوع الذي يُحبّانِهِ والمُقام من بين الأموات. لكنّه لم يفعل هذا بل أخفى نفسه عنهما. بدلًا من ذلك، أراد أن يأخذهما في رحلة تبدأ بالإيمان بكلّ ما هو مكتوب، بكلّ ما كُتب عن المسيح، من موسى حتى آخر الأنبياء.

من المعروف أنّه بالنظر إلى المكان الذي هما فيه جغرافيًّا،

فإنّ الرحلة كانت ستستغرق حوالي ساعتين، أكّد خلالها يسوع لهما العديد من الحقائق المكتوبة عنه في الكتاب المقدّس. يواجه الإنسان في حياته أيضًا المشاكل، ويمرّ بصعوبات وأوقات عصيبة مليئة بالأسئلة حيث يتمنّى أن يكون السيّد موجودًا ليعطيه إجابات مهدّئة وعلاجًا لمشاكله.

ينسى المؤمن أحيانًا أنَّ روح الربّ ساكن في داخله وهو يشير إلى الكتاب المقدّس. هذه هي أزمة أولئك البعيدين عن الكتاب المقدس، الذين يحاولون إيجاد إجابات خارجه، أو الذين يعتبرون أنّ أجزاء منه فقط مفيدة لهم، وأجزاء أخرى ليست كذلك. هؤلاء الناس يجتهدون في نقد الكتاب المقدّس وتحليل محتواه وتعلّم القليل من حقائقه.

قال لهما يسوع: «*أيّها الغبيّان*»، شخص واحد دوَّن كلّ ما هو مكتوب: إنّه الربّ! وهو يحتوي على الكثير من التعاليم الشافية والمعزّية. كلّ أسفار الكتاب المقدّس لها كاتِب واحد. حمل كثيرون ريشة الكتابة، لكنّهم جميعًا كتبوا بصوت واحد ورسالة واحدة وحقيقة واحدة، ابتداء من الأسفار التي كتبها موسى حتّى بقيّة الأنبياء وصولًا إلى ملاخي. كلّها تَستَند إلى مبدأ أخلاقيّ

واحد، وتعليم واحد، ولاهوت واحد، وتاريخ واحد، ومخلّص واحد، وطريق واحد للخلاص، لأنّ واحدًا فقط هو الذي كتبها جميعَها.

هناك من يمرّون بأزمات بسبب عدم معرفتهم للحقيقة، وهم بلا مرجعية ولا يوجد من يعطيهم رأيًا واحدًا عن الله. يقولون إنّ لله أنبياء كُثُر، بينما كُلّ واحد منهم يقول شيئًا مُختلفًا، وبالتالي يمكننا اختيار ما نعتقد أنّه الأصَحّ أو الأقرب!

لدينا تفسير واحد لحقيقة ساطعة تجعل العديد من معاهد اللاهوت ومُعلّمين كثيرين يخجلون. شدّد الرسول بولس على هذه الحقيقة وقال: «*كلّ الكتاب موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ للتقويم والتأديب الذي في البرّ*» (٢ تيموثاوس ٣: ١٦). وهكذا، كلّما كانت لدينا مشكلة فإنّ الإجابة واضحة: الكتاب المقدّس، لأنّ الإجابة دائمًا موجودة فيه، فهناك نسمع صوت الله.

كان هذان الرّجلان من تلاميذه. لقد درسا معه، ولكن لا يزال هناك أمر ما لم يلاحظوه وهو موجود في صميم الكتاب المقدّس. نحن نبحث عن إجابات وآراء من هنا وهناك: نسمع

من هذا وذاك ونترك مصدر العِلم كلّه: الكتاب المقدّس. الإدِّعاء بأن الأفكار المُتنوِّعة والمُتناقضة جميعها مأخوذة من الكتاب المقدّس حجَّة واهية لأنّ الظنّ بأنَّ المُشكلة تكمن في التفسير هو ظنٌ خاطىء، إذ المُشكلة بصراحة تكمن في التفسير الذي لا يؤمن بكفاية كلمة الله.

«*أيها الغبيّان..*». بالتأكيد كانا يعرفان الكثير مِمّا قاله الأنبياء، لكن مشكلتهما أنّهما لم يعرفا معرفة جيّدة ولم يتمسَّكا كفاية بما عرفاه وآمنا به. لم يعرفا مدى صحّة وثبات الكلمة المُقدّسة.

هل يوجد حلّ لمن لا يملك الوقت أو الرغبة بدراسة كلمة الله وتمييز التعاليم المُختلفة التي يسمعها؟ لا، لأنّ الإجابة ستأتي من خارج الحقّ المُعلن في الكتاب المقدّس، ومن يستطيع أن يضمن صحّته؟

كلّ ما هو مكتوب كُتب من أجل حياتنا الروحيَّة إذ لا يوجد بديل عن خبز الحياة. قال يسوع للتلميذَين لو أنّهما انتبها وتَمَسَّكا بالمكتوب، لما حزنا على رؤية ابن الله يموت على الصليب. لو كانا مُجتهدَين في كُتب موسى والأنبياء، لما خافا ولا اندهشا

عندما سيق حمَل الله كشاة للذبح، أو عندما أمسك الأشرار به وقتلوه. لو كانا منتبهَين ومتمسّكَين بكلّ ما في الكتاب المقدّس، لما كانا مرتبكَين ومتردّدين. حين نُحبّ ونُعزِّز ونوقِّر الكتاب بكامله، سنحصل على كلّ ما نحتاجه في هذه الحياة، «*لذلك يجب أن نتنبّه أكثر إلى ما سمعنا لئلّا نفوته*» (العبرانيين ٢: ١).

عندما يأتي المعلّم يُعَلّم ويستمرّ في التعليم، وفي كلّ مرّة كان يُعَلّم كان أيضًا يشفي أمراض الناس الجسديّة والروحيّة والنفسيّة. لا شيء يقدر أن يساعدنا سوى كلمة الحياة لأنّها روح الله.

عاد يسوع المُقام، الإنسان الكامل والله الكامل، إلى تلاميذه ليُعَلّمهم. كيف يمكننا أن نبحث عمّا نحتاج إليه في مكان آخر؟ لو لم يكن يسوع المسيح هو الربّ إلهنا الذي كتب بيد موسى وإشعياء والأنبياء الآخرين من خلال الروح القدس، لما استخدمها كأقوال الله بل كان سيكرز بتعاليمه الجديدة.

النظرة الصّحيحة عن المسيح

أكَّدَ يسوع للتلميذَين إنّه وحده موضوع ما هو مكتوب في الكتاب

المقدّس. أكَّدَ لمرثا أنَّ الحاجة هي إلى واحد والحاجة هي للجلوس عند أقدام هذا الواحد والتَعَلُّم منه. هو الطبيب والدّواء في الوقت نفسِهِ.

قد يبدو هذا كطريقة جديدة للعلاج لبعض الناس، لكنّها في الواقع طريقة قديمة. المشكلة كلّها تكمن في الحاجة إلى رؤية يسوع. قال له النّبي موسى مرّةً: «أرني مجدك». يبدو الأمر كما لو أنّنا لن نسير معه بدون رؤيته، أو كما لو أنّنا لن نسمح له أن يتركنا حتّى يباركنا كما فعل يعقوب. لِمَ لا، فالإيمان هو أن يختبر الإنسان الربّ وأن يتمتّع بشخصه إلى الأبد. المسيح في تجلّيه هو ربّنا العظيم بكلّ صفاته وعندما يأتي، سيحل جميع المشاكل وينهي جميع الأسباب الكامنة وراءَها. سيشفي أيضًا جميع الأمراض ويعالج كلّ شكّ، ويجيب عن جميع الأسئلة. كلّ أسفار الكتاب المقدّس تشهد عن يسوع وتشير إليه، وإذا أردنا أن نفهمها، يجب أن نبحث عنه. مثلًا، إذا اعتقدنا أنّ نشيد الأنشاد هو سفر يتكلّم عن علاقة حبّ بين الرجل والمرأة فقط، فسنفقد المعنى الأساسي لهذا السفر العظيم. إذا اعتقدنا أنّ قصّة إبراهيم وإسحاق تتعلّق فقط برجل يضحّي بابنه، فسوف

نفقد الإشارة إلى الصّليب من خلال هذه القصّة. إذا اعتقدنا أنّ قصّة يوسف تتكلّم عن بيع إخوته له وإنقاذه لهم لاحقًا وأنّه ليس في هذا إشارة إلى المسيح، فلن نفهم أساسيَّات هذه القصّة. إذا كنا لا نعرف كيف كان يسوع يسير في وسط الجنة، وأنّه هو الذي سيأتي من نسل المرأة ويسحق رأس الحيّة، فلن نفهم الأحداث هذه التي جرت في الجنّة. الحاجة له ولا حاجة إلى أَحد معه «*ويكون الجميع مُتعلّمين من الله*» (يوحنا ٦:٤٥).

قصّة الفداء

هناك قضيّة صعبة لا يقدر أن يشرحها إلّا الكتاب المقدّس والمعرفة الصّحيحة ليسوع، وهي أنّه كان ينبغي لابن الإنسان أن يتألّم ويموت. عندما كان يسوع في طريقه إلى الجلجثة، لم يكن الشيطان سعيدًا بصلبه وموته. أراد أن يمنع يسوع من الألم والموت لأنّ طريق الجلجثة هو طريق الخلاص وهو يمرّ بالألم. يوجد ديانات ومذاهب وآراء وأناجيل لا تؤكّد على آلام المسيح وموته. لكنّ الكتاب المقدّس بكاملِهِ يركّز في موت المسيح وآلامه لتحقيق الفداء المجيد.

يتحدّث داود في المزامير عن الصليب: «*لأنّه قد أحاطت بي كلاب. جماعة من الأشرار اكتنفتني. ثقبوا يديّ ورجليّ*» (٢٢: ١٦). كتب إشعياء قبل مجيء المسيح بمئات السنين هذه الكلمات: «*مُحتقر ومخذول من الناس. رجل أوجاع ومختبر الحزن. وكمُستتّر عنه وجوهنا. مُحتقر فلم نَعتدّ به. لكنّ أحزاننا حملها وأوجاعنا تَحمّلها، ونحن حَسبناه مُصابًا مَضروبًا من الله ومذلولًا. وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا. تأديب سلامنا عليه، وبحُبره شُفينا*» (٥٣: ٣-٥). يتحدّث إشعياء هنا عن المُخلِّص، قدّوس الله الذي سيأتي ويتألّم ويموت. لقد حمل خطايانا وأحزاننا، ولكي نعرف ما هي وكيف سيُخلّصنا منها، يجب أن نراه على الصليب. ولكي نفهم ما يجري في حياتنا، يجب أن نفهم ما جرى مع المسيح.

ما فعله المسيح عظيم جدًّا، وعظيم أيضًا أن نعرف من أجل مَنْ فعل ذلك. إذا أردنا أن نفهم من نحن ولماذا نحن هنا ولماذا يوجد ألم في الحياة، أو ماذا سيفعل الله معنا، يجب أن نفهم الصّليب. هل نحن مع الكثيرين الذين لا يهتمّون بهذه القضيّة؟ هل نحن مع أولئك الذين ينظرون إلى يسوع ويقولون كم هو

مؤسف لما فعلوه به وكيف صلبوه وكيف مات؟ يُكمل إشعياء قائلًا: «*أمّا الربّ فسُرّ بأن يسحقه بالحزن إن جعل نفسه ذبيحة اثم يرى نسلًا تطول أيّامه ومسرّة الربّ بيده تنجح*» (١٠). لكي نفهم حياتنا ومشاكلنا وخطايانا والطريق إلى الخلاص والطريق إلى القداسة، يجب أن نفهم معنى ما فعله المسيح لأجل مُختاريه. هل نحبّه لأنّه كفّر عنّا خطايانا ومات على الصليب وحمل عنا كلّ ذنوبنا وشرورنا؟ أم نحبّه لأنّنا بحاجة إليه؟ أم نحبّه لأنّه الخالق العظيم؟ كيف نعبّر له عن حبّنا وما هي حدود هذه المحبّة؟ مفهوم الصليب يُحَدِّد نوعيَّة الإجابات عن هذه الأسئلة وبالتالي سبب ونوعيَّة العبادة.

العبادة بعد الكفَّارة

ليست كُل عبادةٍ صحيحة، لأنَّه يوجد أشكال وأسباب مختلفة لها، وهناك ما هو مقبول وما هو مرفوض. أيّ عبادة لا تقوم على الفداء والكفّارة مرفوضة من الله وهي محاولة لرشوته وأفضل ما تُقَدِمه له لن يُسِرُّه «*هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت*» (متى ٣:١٧).

معنى العبادة هو الالتزام الكامل وتقديم الشكر والامتنان لحضور

الله معنا. لن يحدث هذا أبدًا بدون الإيمان والفهم الصّحيح للمسيح (عمّانوئيل: أي الله معنا). بدون انشغال القلب بحضور الله، وبدون إيمان حقيقيّ أو اختبار حقيقيّ، لا يمكن للمرء أن يعبد بالروح والحقّ. قد نمارس الطقوس الدينيّة ونؤدّي الصلوات ونردّد الكلمات ونرنّم التراتيل ونطلب رضى الله ورحمته، ولكنّنا في الوقت نفسه نعبد الله باطلًا. العبادة الحقّة هي عندما يشكر القلبُ الله على الخلاص الذي قد أُكمل على الصليب وعندما يصرخ القلب فرحًا وامتنانًا بقيامته، وعندما تَذرف العيونُ الدموعَ بسبب محبَّتِهِ. هذا النوع من العبادة المبني على المعرفة الحقيقيّة للمسيح وكفّارته لا يمكن أن تُشتّته الصّعوبات والضيقات. عندما تنهار أعمدتنا، نستمرّ في العبادة بسبب هوّيته وهويتنا، وليس بسبب بركاته التي يُنعمُها علينا هنا على الأرض.

نحن نحبُّ الربّ ونعبده لأنّه أحبنا أوّلًا واختارنا لنكون له. إنّ عقيدة الاختيار جوهرة ثمينة لا تُريحنا أثناء التجربة فحسب، بل تُثبّتنا وتضمَنُنا في أوقات الشدّة. إذا دُعينا لحضور حفل زفاف واكتشفنا أنّ هناك كرسيًّا محجوزًا مكتوبًا عليه اسمنا، وأنّ هناك مهمّة علينا القيام بها، وأنّ المضيفين كانوا يفكّرون بنا قبل

الدّعوة وبعدها، فسنشعر بفرح وامتنان كبيرَين. ولكن إذا ذهبنا إلى حفل الزفاف بدون دعوة، فمن المؤكّد أنّنا سنشعر بالسّوء وبعدم الاحترام. ألن يكون أفضل بكثير إذا قيل لنا إنّهم ينتظروننا ومستعدّون لاستقبالنا؟ عبادة الله تشبه جدًّا هذا الموقف. نشكره على نِعَمِه لأنّه عندما كان على الصّليب، لم يكن يقدّم عرضًا أو مشهدًا ليرى ما إذا كنّا سنأتي لمشاهدته أم لا. لم يكن يكتب دعوة. كان يُتَمِّم خلاصنا المُعَدّ لنا من قبل تأسيس العالم. حينما كان على الصّليب قبل ألفي عام، كان يعرف خِرافه جميعًا بالاسم، وقد حمل خطايا وأتعاب كلّ واحد منها. «*أيّها الغبيّان*»... سألَ يسوع التلميذَين: ألم تدرسا وتفهما الكتاب بأنّ القصّة تدور حول الله الذي أحبَّ خاصَّته وأتى إلى الأرض ليموت من أجلهم ويُحرّرهم من الخطيئة ويمنحهم حياة جديدة ليكونوا معه؟ ألم تُدركا أنّ الكتاب كلّه إنّما هو قصّة حُبّ لا مثيل لها؟ هو الإله القدّوس الذي أحبَّ الخطاة. هو الله الذي لا يدعونا لنُخلّص أنفسنا، ولم يأتِ ليُقدّم لنا عَرضًا للخلاص، بل هو الله الذي تجسَّدَ ومات على الصليب وخلَّصَنا بالفعل. هو الغريب الذي يأتي وسرعان ما نكتشف أنه الأب والأم وكُلّ

شيء بالنسبة إلينا.

المجد في الآلام

هنالك حقيقة يجب ذكرها هنا وهي أنّ يسوع لم يأتِ لمساعدتنا، بل جاء ليُنقذنا من هذه الحياة بالتخلّص من حياة العبوديَّة القديمة واستبدالها بأخرى حرَّة جديدة. أولئك الذين لا يفهمون الألم لا يستطيعون فهم المجد؛ أولئك الذين لا يفهمون طريق الصليب لن يفهموا طريق القيامة.

ماذا يعني أن نموت مع المسيح؟ ما هي رمزيّة المعموديّة، وغمر أجسادنا تحت الماء والقيام كإنسان جديد؟ أولئك الذين لا يفهمون آلام يسوع لا يمكنهم فهم أي شيء ممّا سَبَق. إنّهم لا يفهمون أنّ يسوع طلب منّا أن نموت قبل أن نحيا، وهو نفسه مات لكي نحيا: «*الحقّ الحقّ أقول لكم: إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير*» (يوحنا ١٢: ٢٤).

إنَّ ما يضعُنا في طريق القداسة، ويمنحنا كلّ هذه البركات التي

تكلَّمنا عنها هو بالتأكيد عطيَّة. إنّ الدواء يشفي بعد أن يكوي، والله يكسر حتَّى يبني، «*لأَنَّهُ هُوَ يَجْرَحُ وَيَعْصِبُ. يَسْحَقُ وَيَدَاهُ تَشْفِيَانِ*» (أيوب ٥: ١٨). لا أحد يُنكر أنّ الألم هو العطيَّة التي لا يريدها أحد على الرغم من فوائدها الكثيرة. هكذا نفهم كلمات بولس الرسول إلى المؤمنين المُتألِّمين في كنيسة فيلبي: «*لأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لأَجْلِ الْمَسِيحِ لاَ أَنْ تُؤْمِنُوا بِهِ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا أَنْ تَتَأَلَّمُوا لأَجْلِهِ*» (فيلبي ١: ٢٩). يتمجَّد المسيح بآلامنا عندما نقبلها بسرور من أجله، ويتمجَّد أيضًا بوجوده معنا أثناء الألم.

لا عجب من الألم عند سقوط الأعمدة في الحياة، الهامّ هو الانتصار عليه. إنّ بركات الألم لا تُحصى ولا تُعدّ، ولكن لا يمكن أن نراها إلّا بالإيمان. لذلك يصعب على غير المؤمن إدراكها وفَهْم فوائدها. كتبَ الرسول بطرس يقول: «*فَإِذْ قَدْ تَأَلَّمَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا بِالْجَسَدِ، تَسَلَّحُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهَذِهِ النِّيَّةِ. فَإِنَّ مَنْ تَأَلَّمَ فِي الْجَسَدِ كُفَّ عَنِ الْخَطِيَّةِ*» (١بطرس ٤: ١) يرى غير المؤمن نفسه عندما يتألَّم أنَّه خاسر ومظلوم ومذلول، في حين أنّ المؤمن يعلم جيّدًا أنّ الألم هو باب التمحيص والنصرة، وهو بابٌ للمجد. الألم مع المسيح هو أجمل من الحياة بدونه.

الغريب الذي نحتاجه

هذا الغريب الذي ظهر لتلميذَي عمواس، أخبرهما عن الذي يجب أن يتألّم ويموت وعن الذي ينتظرونه. ولكن عندما تركهما، قالا: «*ألم يكن قلبنا ملتهبًا فينا إذ كان يكلّمنا في الطريق ويوضّح لنا الكتب؟*» (لوقا ٢٤: ٣٢). ألهب يسوع قلبيهما. لو كان هناك نمط أو نموذج أو مثال يجب علينا اتّباعه في هذا العالم، فسيكون يسوع. حتّى عندما نجتمع للصلاة، يجب أن نتبع الطريقة التي استخدمها مع هذين التلميذَين ونُشعل قلوبنا بكلمة الله. كيف عبَّرا عن قلبَيهما الملتهبَين؟ في البداية، تظاهر بأنّه سيغادر حتى لا يفرض نفسه عليهم. لكنّهما أصَرّا على أن يبقى ويتناول العشاء معهما. يعطينا الله دائمًا خيار المغادرة أو البقاء. يجب أن نتمسَّك بيسوع ونُصِرّ على حضوره. الغريب الذي نحتاجه هو السيّد الموجود في الجوار. عندما تنهار الأعمدة، علينا أن نلاحظ وجوده لأنّه أقرب منّا مِمّا نعتقد. يبقى علينا أن نعرف كيف نتعرّف إلى صوته وكيف نميّزه. يجب أن نقرأ كتابه ونبحث عنه فيه. يقول الربّ: «*أمّا أنا فإنّي الراعي الصالح وأعرف خاصّتي وأنا وخاصّتي تعرفني*» (يوحنا ١٠: ١٤). يجب أن

نسأل أنفسنا إذا كنّا نستمع لصوته. هل ننتبه إلى صوت يسوع يتحدّث إلينا؟ أم أنّنا ننتظر منه أن يتحدّث إلينا بطريقة مختلفة؟ توجد كلمات كثيرة في الكتاب المقدّس، لكنَّ سمعَ الإنسان ثقيل. الله يتحدّث ويدعو الجميع للسَّمع: «*من له أذنان للسمع فليسمع*» (مت ١١: ١٥).

جاء السيّد إلى تلميذَي عمواس، جاء إلى مريم والرجل الأعمى والرسل وكثيرين غيرهم. هو وعد «*ها أنا مَعَكُم كُلَّ الأيام*» (متى ٢٨: ٢٠)، وصَرَّحَ قائلًا: «*هنذا واقف على الباب وأقرع*» (رؤيا يوحنا ٣: ٢٠). يُنادينا في أصعب أوقاتنا، فهل نتجاهل أو نتظاهر بأنّنا لم نسمع؟

التلميذان اللذان اختبرا حضور يسوع ومكوثه معهما، قطعا رحلتهما وعادا إلى أورشليم ليُخبرا التلاميذ الآخرين بالأخبار السارّة. دائمًا ما تغيّر التجربة الحقيقيّة مع المسيح طريقَنا. عندما تنهار الأعمدة فأهلًا وسهلًا بذلك، لأنَّه سيجدنا ويتواصل معنا مُخلِّصُنا وسيعيدنا لنستقرّ في ظِلّ جناحيه. عندما يجِدُنا هذا الغريب سنجد معنى حياتنا والهدف من وجودها.

لـو اسـتطاع أحـد أن يسـمع صرخـات قلـوب أولئـك المتألّمـين لأدرك أنهـا تقـول "يـا رب أرجـوك أن يكـون هنالـك هـدف خلـف هـذا الألـم". وهـذا الكتـاب يجيـب تلـك القلـوب الصارخـة "نعـم هنالـك هـدف". لا يطلـب منـا القـس طـوني سـكاف أن نتجـاوب مـع الألـم بطريقـة سـليمة دون أن يبـني تلـك الاسـتجابة عـلى أسـاس واضـح وذلـك الأسـاس هـو سـيادة اللـه في الألـم. يبـدو اللـه في هـذا الكتـاب كمدبّـر وتبـدو أعمـال عنايتـه هادفـة وليسـت مجـرّد ردود أفعـال عـلى عشـوائية الظـروف. يقودنـا الكتـاب عـبر رحلـة لا نسـتغرب في نهايتهـا عندمـا نـرى التعـب محتجبـاً بجمـال الصليب، حيث يصبح الأمران مرتبطان عندما يكون الله هو المسيطر على مجرى الأحداث.

500plus تقـدّم لكـم هـذا الكتـاب لـكي يكـون زوادة جديـدة لمـن أراد لهـم اللـه أن يروا جماله وبهاء مجده بواسطة الاشتراك في شركة آلامه.

داني برماوي
المدير التنفيذي لمؤسسة 500plus

القسّ طوني سكاف

راعي الكنيسة المعمدانيّة الإنجيليّة - بدارو

- بكالوريوس في علم المعلوماتيّة (جامعة اللويزة)
- ماجيستير في اللاهوت M. Th (معهد اللاهوت المعمداني اللبناني)
- الماجيستير العالية في اللاهوت M.Div (جامعة لوثر رايس، أتلانتا، جورجيا)

للكاتب كتب أخرى، هذه بعض عناوينها:

- الصلاة كما علَّمها يسوع
- الحرب المحسومة
- المسيحيّة كما لا يعرفها الكثيرون
- أصعب ما يؤمن به المسيحيّون
- دعوة لتحقيق المستحيل

ISBN 9789953055749

500 PLUS